منهج الدكتور محمد عمارة في مناقشة الفكر العلماني

دراسة وصفية تحليلية

إعداد

عطية السيد عطية العادلي

أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية المساعد

في كلية أصول الدين بالمنصورة

بسم الله الرحمن الرحيم

منهج الدكتور محمد عمارة في مناقشة الفكر العلماني
دراسة وصفية تحليلية

عطية السيد عطية العادلي
قسم الدعوة والثقافة الإسلامية ، كلية أصول الدين والدعوة ، الدقهلية , جامعة الأزهر، مصر.
البريد الإلكتروني : ateyaeladly@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

موضوع هذ البحث يرتكز على تتبع منهجية عَلَمٍ من أعلام المسلمين المعنيين بشأن الفكر الإسلامي وتتبع ما يثار حول قضاياه من شبهات وافتراءات، وهو الدكتور محمد عمارة (ت ٢٠٢٠م) في عرض شبهات العلمانيين ومن دار في فلكهم، والكر عليها بالتشريح والرد والنقض والتفنيد من خلال منجزه العلمي المعني بهذه القضية، وقد استهل البحث بالترجمة الموجزة لشخص د. محمد عمارة بداية من البيئة التي نشأ فيها، ثم مراحل التعليم المختلفة مرورا بتكوينه العلمي والمعرفي، وانتهاء بعرض مشروعه الفكري، ثم انتقل البحث لعرض معالم المنهجية التي اتبعها العالم الفذُّ في تتبع العديد من المشاريع الفكرية للمدرسة العلمانية، وكان من أهم ملامح هذه المنهجية: تحرير المصطلحات لفهم ما تحويه من أفكار، والارتكاز على المنهج المقارن لبيان الحقائق، والإحاطة بالمنجز المعرفي للخصم استعدادا لمناقشته، واستلهام التراث الإسلامي، وتفنيد دعوى علمانية أعلام الإحياء الإسلامي، ورصد التحولات الفكرية من العلمانية إلى الإسلام، ونقض الدعوى بإبراز جهل الخصم بعلوم اللغة العربية، وإبراز ضحالة الحصيلة اللغوية لدى التوجه العلماني، وتوقف الباحث أمام كل معلم من معالم هذا المنهج جامعاً للنصوص ومحللاً لجزئياتها، من خلال ما أدلى به فضيلته من رؤى وأفكار، ومقترحات وحلول، مع التعقيب على كل قضية بما يتناسب معها.

الكلمات المفتاحية: منهج – مناقشة – العلماني – التراث – المقارن.

Dr. Muhammad Amara's Approach to Discussing Secular Thought A Descriptive and Analytical Study

Atiya Al-Sayed Atiya Al-Adly
Department of Da'wa and Islamic Culture, Faculty of Fundamentals of Religion and Da'wa, Dakahlia, Al-Azhar University, Egypt.
Email: ateyaeladly@azhar.edu.eg

Abstract:
The subject of this research is based on following the methodology of a prominent Muslim scholar concerned with Islamic thought and following the doubts and slander raised about its issues, namely Dr. Muhammad Amara (d. 2020 AD) in presenting the doubts of secularists and those who revolve around them, and attacking them with dissection, response, refutation and refutation through his scientific achievement concerned with this issue. The research began with a brief biography of Dr. Muhammad Amara, starting with the environment in which he grew up, then the various stages of education, passing through his scientific and cognitive formation, and ending with presenting his intellectual project.
Then the research moved on to present the features of the methodology that the distinguished scholar followed in tracking many of the intellectual projects of the secular school. The most important features of this methodology were: clarifying the terms to understand the ideas they contain, relying on the comparative method to clarify the facts, encompassing the opponent's cognitive achievement in preparation for discussing it, drawing inspiration from the Islamic heritage, refuting the claim of secularism of the scholars of Islamic revival, monitoring the intellectual transformations from secularism to Islam, and refuting the claim by highlighting the opponent's ignorance of the sciences of the Arabic language, and highlighting the shallowness of the linguistic background of the secular trend. The researcher stopped at each feature of this methodology, collecting the texts and analyzing their details, through what His Eminence stated of visions, ideas, proposals and solutions, with commentary on each issue in a manner that suits it

Keywords: Methodology - Discussion - Secular - Heritage - Comparative.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، اصطفى الأنبياء، وورَّث علمهم العلماء الأصفياء، وأصلي وأسلم على خير البرية وهادي البشرية سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن سلك دربهم إلى يوم الدين، أما بعد.

فإن الله تعالى قد بعث الأنبياء والمرسلين لإخراج العباد من ظلمات الشرك والوثنية إلى نور الإسلام بإعادتهم إلى الفطرة السوية التي فطر الله عليها الخلق جميعًا، تنفيذا للأمر الإلهي: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]، فأدى كل نبي مهمته التي أوكلت إليه خير أداء، حتى كان خاتمهم رسول الله ﷺ، فختم الله به الرسالات والنبوات، وأذن الله ﷻ بحفظ الوحي الشريف، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[2]، كما حفظت السنة النبوية على أيدي الصحابة والتابعين، ومن جاء بعدهم من العلماء الربانيين، فصار هذان المصدران يمثلان السياج الحامي للإسلام، وحولهما نشأت العلوم الإسلامية الشرعية واللغوية، والتطبيقية، لكن المتتبع للخط البياني للتاريخ الإسلامي يدرك أنه بين كل فينة وأخرى تبرز أصوات تند عن جادة الطريق سواء ممن يدعون الانتماء إلى دائرة المسلمين أو من المناوئين للإسلام الكارهين لنوره، في محاولات متكررة لإثارة الشبهات بغية تشكيك المسلمين في دينهم، ولتكوين حائط صد يحول دون انتشار الإسلام بين غير المسلمين، فظهرت قديما الحركات الباطنية بفكرها المنحرف فقام علماء المسلمين بفضح مخططاتهم، ورد كيدهم، وكان على رأسهم حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ)، وفي العصر الحديث ظهرت حركة الاستشراق

(١) سورة الروم الآية ٣٠.

(٢) سورة الحجر الآية ٩.

الغربي بما عرف عنها بالدراسات الواسعة المعنية بالتراث الإسلامي بمختلف تخصصاته، فألفوا الكتب، ونشروا المجلات والدوريات، وأنشأوا الأقسام العلمية المتخصصة في الدراسات الإسلامية والعربية في الجامعات الأوربية، لأهداف عدة أوسعها علماء المسلمين بحثًا ودراسة، وكان على رأسها مواجهة الدين الإسلامي والحيلولة دون انتشاره في العالم الغربي مع زعزعة المسلمين وتشكيكهم في دينهم.

وعلى يدي الحركة الاستشراقية تربى نفر ممن ينتمون إلى الإسلام، فأعجبوا بالفكر الاستشراقي الغربي، وانبهروا بالحضارة الغربية المادية، ومنهم من تم اقتناصهم فاستقبلوا في أروقة الجامعات الغربية لينالوا منها أسمى الدرجات العلمية من الماجستير والدكتوراه، وتم إعدادهم إعدادًا جيدًا حتى إذا عادوا إلى بلادهم صاروا سفراء مخلصين للفكر الاستشراقي، والحركة التغريبية، وأصبحوا جزءًا من مخطط الغزو الثقافي للعالم الإسلامي، وبالفعل تم تلميع هؤلاء وسط المجتمعات الإسلامية وخلعت عليهم الألقاب العلمية الرنانة، وصارت لهم مشاريع فكرية تنفق عليها الأموال الطائلة، وتفتح لها دور النشر أروقتَها، وأصبح هؤلاء يعرفون بـ(التيار العلماني) أو (الحركة التنويرية).

وإزاء هذه الظاهرة لم يقف علماء المسلمين الأبرار مكتوفو الأيدي بل كثفوا جهودهم لرصد الأعمال الفكرية التي تبناها التيار العلماني، خاصة حينما أصبح خطرهم داهمًا يهدد منظومة السلم المجتمعي بزرع الأفكار التغريبية في عقول أبناء المسلمين في خطوة وئيدة لتغيير هوية المجتمع المسلم وإلحاقه بالنموذج الغربي.

وكان من أبرز هؤلاء العلماء الذين نذروا أنفسهم لكشف هذا الفكر التغريبي العلماني المفكر الإسلامي الدكتور محمد عمارة – رحمه الله – حيث تتبع المشاريع الفكرية لأبرز دعاة العلمانية في العالم العربي بصفة عامة والقطر المصري بصفة خاصة، وقام منهجه على الدراسة المتأنية والواعية لكل مشروع منها، ثم التوقف على أهم المغالطات والأخطاء والخطايا الواردة فيه؛ ليتسنى له تفكيكها وتحليلها،

وتقديم ما ينقدها ويفندها من الأدلة العقلية والنقلية مستقيًا من التراث الإسلامي ما يعينه على أداء مهمته بالتخندق في خندق الدفاع عن بيضة الإسلام، مما استدعى الباحث للعكوف على المنجز العلمي للدكتور محمد عمارة في مجال دراسة العلمانية ومناقشة أهم مفكريها، وكتابة هذا البحث الذي جاء تحت عنوان: **(منهج الدكتور محمد عمارة في مناقشة الفكر العلماني دراسة وصفية تحليلية)**.

أولًا: أهمية البحث:

تتضح أهمية هذا البحث فيما يلي:

١. حاجة الساحة الدعوية لتكوين الكوادر المؤهلة لرصد شبهات الفكر العلماني، وتفنيدها تفنيدًا علميًا يرتكز على قواعد البحث العلمي الرشيد.

٢. يُعدُّ الدكتور محمد عمارة من أبرز المفكرين المسلمين الذين عنوا بدراسة الفكر العلماني من حيث النشأة والملابسات والقضايا المتداولة على مائدته، وتتبع منجزه العلمي يسهم بنصيب وافر في تكوين هذه الكوادر الدعوية القادرة على تفكيك الفكر العلماني وحماية المجتمع من التأثر ببراثن شبهاته.

٣. لا يقتصر دور هذا البحث على عرض مشكلات الفكر العلماني وآثارها على العقل المسلم، وإنما يعنى في الأساس بدراسة المنهجية العلمية التي اتبعها الدكتور عمارة في مناقشة هذا الفكر.

٤. يمثل هذا البحث خطوة جادة على بداية طريق ملء الساحة الفكرية الإسلامية بالكوادر العلمية المؤهلى لمخاطبة الفكر العلماني بمختلف فئاته وأطيافه، من خلال تلمس المنهجية العلمية لعلماء المسلمين في تتبع منظومة الفكر العلماني ومناقشتها.

٥. يسهم هذا البحث في فتق ثوب التخندق والتقوقع في إطار الفكر الإسلامي دون الانفتاح على آفاق الأفكار والطروحات المعرفية المناوئة للفكر الإسلامي.

ثانيًا: أسباب اختيار الموضوع:

١- الدكتور محمد عمارة أزهري المنشأ والمشرب منذ المراحل الأولى للتعليم، وحتى نهاية المرحلة الثانوية، وبالرغم من التحاقة بكلية دار العلوم إلا أن علاقته بالأزهر لم تنقطع بل ظلت موصولة فاختير عضوًا بمجمع البحوث الإسلامية، وعضوًا بهيئة كبار العلماء، ورئيسًا لتحرير مجلة الأزهر، وكل مؤسسة أولى برجالها؛ يتوجب على باحثيها إبراز سيرتهم ومسيرتهم العلمية، لا سيما وإن كانت حافلة بالبذل والعطاء.

٢- مثَّلت منهجية الدكتور عمارة في التعامل مع منظومة الفكر العلماني أمرًا فريدًا من نوعه يمكن البناء عليه والانطلاق منه للراغبين في التعامل مع مكونات هذه المنظومة.

٣- حِرْصُ الباحث على الصقل المعرفي، والرصانة العلمية في مجال الرد على الشبهات المثارة حول مكونات الإسلام من مختلف التيارات التي تمور بها الساحة المعاصرة.

ثالثًا: مشكلة البحث:

تكمن مشكلة البحث الرئيسة في إسهامات الدكتور/ محمد عمارة في مناقشة الفكر العلماني من خلال الاعتماد على منهجية علمية لها معالمها وضوابطها، ويمكن صياغة أسئلة البحث المنبثقة من هذه المشكلة في العناصر التالية:

١- من هو الدكتور/ محمد عمارة؟

٢- ما معالم المنهج المعتمد عليه في مناقشة الفكر العلماني؟

٣- ما سبل الإفادة من هذه المنهجية في مجال الدعوة إلى الله تعالى؟

رابعًا: الدراسات السابقة:

لم أقف – بحسب البحث والاطلاع – في مكتبات الجامعة الأزهرية، والجامعات التي أتيح لي مطالعة فهارس البحوث والرسائل العلمية في أروقتها، وكذا من خلال تصفح المواقع الإلكترونية المعنية بالبحث العلمي على الشبكة الدولية العنكبوتية على دراسة عنيت برصد منهجية الدكتور محمد عمارة في مناقشة الفكر العلماني، وإن كان هناك عدة دراسات قد كتبت حول شخصه وفكره، ومنها:

١- مشروع النهضة بين الإسلام والعلمانية دراسة في فكر محمد عمارة ومحمد عابد الجابري، د. محمد علي أبو هندي، وهذه الدراسة في أصلها رسالة دكتوراه حصل عليها الباحث من قسم الفلسفة بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة، عام ٢٠٠٨م، ثم نشرتها مكتبة دار السلام بالقاهرة عام ٢٠١٠م.

٢- محمد عمارة داعية الإحياء والتجديد الإسلامي، د. عبد الرازق عيسى، وهي دراسة صدرت ضمن سلسلة (علماء ومفكرون معاصرون لمحات من حياتهم، والتعريف بمؤلفاتهم) رقم (٤٠)، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.

٣- المشروع الفكري للدكتور محمد عمارة، يحيى رضا جاد، الناشر: مفكرون الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٨م.

٤- بحث بعنوان (قضايا المرأة في كتابات محمد عمارة)، للباحث/هاشم عبد الرزاق صالح، منشور بمجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، جامعة الموصل بالعراق، العدد ٣، لسنة ٢٠٢٢م.

٥- بحث بعنوان (منهج محمد عمارة في دراسة المصطلحات)، للباحث عادل الدسوقي عبد الحنان شتلة، منشور بمجلة جامعة جوموش هانة التركية عام ٢٠٢٣م.

خامسًا: منهج البحث:

استدعى البحث الاعتماد على المنهج الوصفي المرتكز على المنهج الاستقرائي، حيث أقوم باستقراء وتتبع المنجز العلمي للدكتور محمد عمارة في محاولة للوقوف على أهم معالم المنهج الذي اتبعه في عرض ومناقشة الفكر العلماني، وتتبع الشواهد الدالة على كل معلم من معالم منهجه، مع التحليل لأهم النصوص والأفكار الواردة إزاء كل ما بحث منها، والتعقيب عليها.

سادسًا: خطة البحث:

استدعى هذا البحث أن تنتظم خطته في: مقدمة، وتمهيد، وثمانية مباحث، وخاتمة، وفهارس.

المقدمة: تضمنت أهمية البحث، وأسباب اختياره، ومشكلة البحث، والدراسات السابقة، ومنهج البحث.

التمهيد: اشتمل على التعريف بالدكتور/ محمد عمارة، وأهم محطات دراسته للفكر العلماني، وثمانية مباحث، وخاتمة: احتوت أهم النتائج والتوصيات.

المبحث الأول: تحرير المصطلحات إبرازًا لما تحويه من أفكار.

المبحث الثاني: الارتكاز على المنهج المقارن لبيان الحقائق.

المبحث الثالث: تفنيد دعوى علمانية أعلام الإحياء الإسلامي.

المبحث الرابع: رصد التحولات الفكرية من العلمانية إلى الفكرة الإسلامية.

المبحث الخامس: تتبع الخط البياني لفكر الشخصية العلمانية.

المبحث السادس: نقض الدعوى بإبراز جهل الخصم بعلوم اللغة العربية.

المبحث السابع: الاستشهاد بأقوال علماء الغرب المنصفين الناقضين لقضايا العلمانية.

المبحث الثامن: إزالة الغبش عن تصور العلمانية للقضايا الاجتماعية.

مبحث تمهيدي

الدكتور محمد عمارة النشأة والتكوين العلمي والمشروع الفكري

المطلب الأول: موجز سيرته الذاتية

أولًا: المولد والنشأة:

ولد محمد عمارة مصطفى عمارة بقرية صروة التابعة لمركز قلين التابع لمحافظة كفر الشيخ بجمهورية مصر العربية في السابع والعشرين من شهر رجب عام (١٣٥٠هـ)، الموافق للثامن من ديسمبر عام (١٩٣١م)، وهبه والده للعلم الديني منذ صباه، فدفعه لحفظ القرآن الكريم في كُتَّاب القرية وسرعان ما أتم حفظه وتجويده، ثم التحق بمعهد دسوق الأزهري عام ١٩٤٥م، فحصل على الشهادة الابتدائية عام ١٩٤٩م، وفي هذه المرحلة يحدثنا عن واقعة أسهمت في تكوينه العلمي، بل في ترسيخ قدمه في العلوم الإسلامية وغير الإسلامية، فيقول: « في القرية صروة هداني الله إلى مكتبة مهجورة، كان صاحبها – المرحوم الشيخ عبد التواب الشناوي– قد توفي عام تخرجه في كلية أصول الدين.. ولم يكن بمنزل عائلته من يقرأ أو يكتب.. وكان لي صديق هو ابن أخته.. فلفت نظري إلى هذه المكتبة، التي ذهبت إليها، فوجدتها كنزًا فريدًا من كنوز المعرفة، تضم نحوًا من أربعة آلاف كتاب، بها عيون التراث العربي والإسلامي، في كل ميادين هذا التراث، كما تضم العديد من الكتب المترجمة عن اللغات الأوروبية في الفلسفة والأدب والاجتماع.. بل وتضم –أيضًا– نسخًا كاملة لأشهر مجلات العصر– مثل (الأزهر) و(الرسالة).. بل والنسخة الأصلية من أعداد مجلة (العروة الوثقى) ولقد تم الاتفاق بيني وبين أسرة الشناوي على شراء هذه المكتبة... وبدأت رحلة القراءة في عوالم الفكر العربي والإسلامي، والمترجمات من اللغات الأوروبية.. وكانت شهور الأجازة الصيفية الأربعة ممنوحة كلها للقراءة، نهارًا إما بالمنزل أو تحت أشجار الجميز والصفصاف على شاطىء النيل– ومساء بالمنزل... فكنت أقرأ حتى تختلط السطور أمام عيني، فأستريح مغمضًا عيني للحظات، ثم أعاود

القراءة من جديد، وبعد استيعاب هذا الكنز المعرفي الثمين والعريض والعميق.. وبعد الحفظ لعديد من دواوين الشعر – الجاهلي والإسلامي– وللعديد من نصوص الأدب العربي المختارة كنماذج للبلاغة والفصاحة– بدأت على نحو سلس وطبيعي– الرغبة في الكتابة والإبداع»[١].

وفي هذه المرحلة تفتقت لديه ملكة الكتابة فنشرت له صحيفة (مصر الفتاة) مقالًا بعنوان «جهاد» ينوه فيه ببطولات المجاهدين العرب في فلسطين في إبريل سنة ١٩٤٨م، وفي سنة ١٩٤٩م، التحق بمعهد طنطا الأحمدي الثانوي، ومنه حصل على الثانوية الأزهرية عام ١٩٥٤م، وفي هذه المرحلة نشر عدة مقالات في صحيفة «مصر الفتاة» و«منبر الشرق» و«المصري»، وفي سنة ١٩٥٤م، التحق بكلية دار العلوم – جامعة القاهرة ومنها تخرج عام ١٩٦٥م، ونال درجة اليسانس في اللغة العربية والعلوم الإسلامية.

ثانيًا: المشروع الفكري:

بعد التخرج من الجامعة، أعطى كل وقته – تقريبًا– وجميع جهده لمشروعه الفكري، فتميز نتاجه العلمي بالغزارة كمًا وكيفًا، فهو من ناحية الكم تجاوزت مؤلفاته المائتين وخمسين كتابًا، ومن ناحية الكيف فقد طوف في معظم تخصصات العلوم الإسلامية فكتب عن موقف الإسلام من قضايا عصره، وعن عقلانية الفكر الإسلامي، وضرب بقلمه في أعماق التاريخ الإنساني والإسلامي، وترجم لعدد من أعلام علماء المسلمين القدامى والمحدثين، وأخرج الأعمال الكاملة لمجددي الإسلام أمثال: رفاعة الطهطاوي، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وقاسم أمين، وعلي مبارك، ودرس وحقق عددًا من كتب التراث الإسلامي [٢]. .

(١) مسيرة قلم، مقال افتتاحية مجلة الأزهر، رمضان ١٤٣٤هـ

(٢) انظر ثبت ببلوغرافي بمؤلفات د. محمد عمارة حسب أنواعها إلى عام ٢٠٠٨م في: محمد عمارة داعية الإحياء والتجديد الإسلامي، عبد الرازق عيسى، سلسلة علماء ومفكرون معاصرون لمحات من حياتهم، وتعريف بمؤلفاتهم، رقم (٤٠)، درا القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠١١م، ص ٦٧–٧٧.

وفي عام ١٩٧٠م حصل على درجة التخصص الماجستير في تخصص الفلسفة الإسلامية من كلية دار العلوم جامعة القاهرة بأطروحة عن (المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية)، ثم حصل على الدكتوراه عام ١٩٧٥م بأطروحة عن (الإسلام وفلسفة الحكم).

كما أسهم في تحرير العديد من الدوريات الفكرية المتخصصة، وشارك في العديد من الندوات والمؤتمرات العلمية في العالم العربي والإسلامي وخارجهما، كما أسهم في تحرير العديد من الموسوعات العلمية والحضارية، مثل (موسوعة الحضارة العربية) و (موسوعة العلوم السياسية) و (موسوعة الشروق).

ثالثًا: عضويته بالمؤسسات الإسلامية:

نال عضوية عدد من المؤسسات العلمية والفكرية والبحثية، منها (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية) بمصر، و(المعهد العالمي للفكر الإسلامي) بواشنطن، و(مركز الدراسات الحضارية) بمصر، و(المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية) التابع لمؤسسة آل البيت بالمملكة الأردنية، و(مجمع البحوث الإسلامية) التابع للأزهر الشريف، و(عضوية هيئة كبار العلماء) بمشيخة الأزهر الشريف، وترأس تحرير مجلة الأزهر الشريف لمدة أربعة أعوام (٢٠١١-٢٠١٥م)

رابعًا: الجوائز والأوسمة:

نظرًا للجهود العلمية والفكرية التي طوفت معظم التخصصات في العلوم الإسلامية، وعالج بها قضايا الأمة المصيرية، نال فضيلته عددًا من الجوائز والأوسمة، منها: جائزة جمعية أصدقاء الكتاب بلبنان (١٩٧٢م)، وجائزة الدولة التشجيعية بمصر عام (١٩٧٧م)، ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى عام (١٩٧٦م)، وجائزة علي وعثمان حافظ للفكر لعام (١٩٩٣م)، وجائزة المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالمملكة الأردنية عام (١٩٩٧م)، ووسام التيار القومي الإسلامي – القائد المؤسس عام (١٩٩٨م)، وجائزة مؤسسة (أحمد كانو

للدراسات الإسلامية، البحرين، عام (٢٠٠٥م) [١].

خامسًا: الوفاة:

وقد ظل –رحمه الله– ممسكًا بقلمه مدافعًا عن دينه، ومنافحا عن حياض أمته العربية والإسلامية إلى أن وافته المنية بعد وعكة صحية دامت لمدة ثلاثة أسابيع، فانتقل إلى رحاب ربه في مساء يوم الجمعة الرابع من شهر رجب عام (١٤٤١هـ) الموافق للثامن والعشرين من شهر فبراير عام ٢٠٢٠م، عن عمر ناهز ٨٩ عامًا، ودفن في مسقط رأسه بقرية صروة بمركز قلين بمحافظة كفر الشيخ.

المطلب الثاني

محطات دراسة الفكر العلماني في مشروعه الفكري

لقد برز جهد الدكتور عمارة في دراسة ومناقشة الفكر العلماني في صورة كتب ومؤلفات ومحاضرات وندوات ومناظرات شهد بعمقها في التناول ورصانتها في العرض والتفنيد، وتأثيرها في الأوساط العلمية، القاصي والداني.

وإذا أردنا تتبع الجهد الذي بذله في هذا المجال بإيجاز يتناسب مع مساحة البحث فسنجد أنه مرَّ بمحطات ومراحل مختلفة.

أولًا: حينما كتب الشيخ علي عبد الرازق كتابه (الإسلام وأصول الحكم) في عام ١٩٢٥م أحدث دويًا وضجيجًا في الأوساط العلمية وتناولته الأقلام الفكرية ما بين مرحب ومؤيد ومدافع، وما بين ناقم وساخط، ومناوىء وناقد، وبعد ما يقارب النصف قرن من صدور الكتاب أصدر كتابه: (الإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرازق دراسة ووثائق)[٢].

---

(١) انظر: الإسلام والأمن الاجتماعي، محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤١٨هـ–١٩٩٨م، ص ١٢٣ وما بعدها، ومسيرة قلم، مقال افتتاحية مجلة الأزهر، رمضان ١٤٣٤هـ، ٣–محمد عمارة داعية الإحياء والتجديد الإسلامي، عبد الرازق عيسى، سلسلة علماء ومفكرون معاصرون لمحات من حياتهم، وتعريف بمؤلفاتهم، رقم (٤٠)، درا القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠١١م، ص ١٣، ١٤.

(٢) ظهرت الطبعة الأولى له في دار الشروق، القاهرة، عام ١٩٨٩م، ثم أعيد طبعه في طبعة جديدة عام ٢٠٠٠م، بالمؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمَّان، الأردن.

واتسم موقفه بالوسطية والاعتدال فأنصف الرجل فيما يستحق الإنصاف فيه، ونقده فيما يستحق النقد، وأثبت بالوثائق الرسمية أن الكتاب لم يكن نتاجا صافيا لعلي عبد الرازق وإنما شاركه في إعداده ومراجعته الدكتور طه حسين.

ثانيًا: حينما كتب الدكتور طه حسين كتابه (في الشعر الجاهلي) عام ١٩٢٦م، وبعدها بسنوات أصدر كتابه الآخر (مستقبل الثقافة في مصر) عام ١٩٣٨م، فثارت حول الرجل الشبهات والشكوك والظنون التي أوصلها البعض إلى حد اليقين في عمالة الرجل لدوائر الفكر الغربي وخاصة الحركة الاستشراقية، فوقف د. عمارة أمام شخصية طه حسين موقف العالم المتسم بالحيادية العلمية فدرس المنجز العلمي لطه حسين دراسة متأنية؛ ليثبت بالأدلة القاطعة أن الرجل قد مرَّ في حياته بمراحل ثلاثة بدأها بالتحاقه بالأزهر الشريف الذي لم يحالفه التوفيق في الحصول على شهادة منه، فكانت المرحلة الثانية من بداية التحاقه بالجامعة المصرية جامعة فؤاد الأول، ثم ابتعاثه إلى فرنسا ليحط رحاله وسط دوائر الفكر الغربي لتؤهله لحمل الدعوة إلى الفكر التغريبي في مصر والوطن العربي، ثم كانت المرحلة الثالثة، وهي مرحلة الأوبة إلى الفكر الإسلامي الرشيد في آخر عشرين سنة من عمره، وسطر كل هذه المراحل بتفصيل في كتابه: (طه حسين من الانبهار بالغرب إلى الانتصار للإسلام)[١].

ثالثًا: حينما كتب المستشار محمد سعيد العشماوي عدة مؤلفات مثَّلت مشروعه الفكري [٢]، وسعى فيها إلى الطعن في ثوابت الإسلام، كالقول بتاريخية النص القرآني، واتهام الصحابة بالارتداد إلى أخلاق الجاهلية وطباعها، وكون الخلافة

(١) صدر هذا الكتاب في هدايا مجلة الأزهر في شهر ذي القعدة ١٤٣٥هـ، وحوى (١٩٢) صفحة من القطع المتوسط.

(٢) من أهم هذه المؤلفات: الإسلام السياسي، جوهر الإسلام، تاريخ الوجودية في الفكر البشري، حقيقة الحجاب وحجية الحديث، الخلافة الإسلامية، الشريعة الإسلامية والقانون المصري، العقل في الإسلام، الربا والفائدة في الإسلام، حصاد العقل، معالم الإسلام، إسلاميات وإسرائيليات، وأصول الشريعة، الجذور المصرية في الديانة اليهودية.

الإسلامية منذ عهد أبي بكر الصديق سلطة دينية كهنوتية، وكون الفقه الإسلامي مستمدًا ومستعارًا من بنود القانون الروماني، إلى غير ذلك من الشبهات.

هنا جمع الدكتور عمارة كل ما أنجزه قلم العشماوي من كتب ومقالات وعكف عليها قراءة ودراسة وفحصًا وتأملاً؛ ليفند الشبهات التي أثارها العشماوي، ودفع للمكتبة الإسلامية بكتابه (سقوط الغلو العلماني) [١]

رابعًا: في فترة التسعينيات وبالتحديد سنة ١٩٩٣م، تقدم الدكتور نصر حامد أبو زيد للترقية إلى درجة أستاذ بكلية الآداب جامعة القاهرة، من خلال نتاجه العلمي بما حواها من كتب ومقالات، وانتهت اللجنة العلمية بعدم موافقتها على الترقية نظرًا لافتئات الدكتور نصر على تعاليم الدين الإسلامي وبالأخص القول بتاريخية النص القرآني، بل إن الأمر تطور لترفع ضده دعوى قضائية تطالب بالتفريق بينه وبين زوجه بناء على الحكم بردته عن الإسلام، وصدر الحكم بالفعل، وانطلقت الأقلام لتهاجم الرجل على كتاباته التي كان يدرسها لطلاب كلية الآداب مسممًا أفكارهم ومُغَرِّبًا عقولهم، لكن الدكتور عمارة لم تجرفه العاطفةُ الجياشة بل اتسم موقفه بالهدوء حتى هدأت العاصفة، واتضحت معالم القضية برمتها من ناحية ، ومن ناحية أخرى أعطى لنفسه الفرصة ليتوفر على النتاج العلمي للرجل، فيصدر حكمه عليه من خلال صفحات كتابه: (التفسير الماركسي للإسلام)[٢].

رابعًا: ومن المشرق الإسلامي إلى المغرب العربي حيث تابع الدكتور/عمارة عن كثب ما أنتجه الدكتور محمد عابد الجابري، خاصة فيما يتعلق بدراسات عن القرآن الكريم، ليقتني ما أنجزه بقلمه في هذا المجال عبر كتابين هما: (مدخل إلى القرآن– في التعريف بالقرآن) والذي صدر عام ٢٠٠٧م، وكتاب (فهم القرآن، ثلاثة أقسام) والذي صدر عام ٢٠٠٨م، ويعكف عليها د. عمارة دراسة وتاملًا؛ ليكشف المغالطات التي وقع فيها الجابري عن سوء قصد منه أو عن تعمد، ويقدم

(١) صدرت الطبعة الأولى للكتاب عن درا الشروق بالقاهرة عام ١٤١٦هـ– ١٩٩٥م.

(٢) صدرت الطبعة الأولى للكتاب عن درا الشروق بالقاهرة عام ١٤١٧هـ– ١٩٩٦م.

للمكتبة الإسلامية (رد افتراءات الجابري على القرآن الكريم)[١].

خامسًا: لما حاول التنويريون العلمانيون اقتناص بعض الشخصيات المؤثرة في الوسط الإسلامي، والتي مثلت منارات في جبين الإحياء الإسلامي في العصر الحديث أمثال الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي، والشيخ جمال الدين الأفغاني، والشيخ محمد عبده، والشيخ عبد الرحمن الكواكبي، فأنصفهم من دوائر العلمانية، وأمدَّ المكتبة الإسلامية بكتابه (الإسلام بين التنوير والتزوير) وخصَّ كلَّ واحد منهم بإخراج أعماله الكاملة [٢].

وقدَّم لكل عمل منها بدراسة ضافية أثبت فيها الانتماء الأصيل لكل واحد منهم إلى الفكر الإسلامي المستنير بنور الوحي الشريف.

وخص الشيخ جمال الدين الأفغاني بدراسات متخصصة، خاصة حينما افتأت عليه الدكتور لويس عوض في كتابه: (تاريخ الفكر المصري الحديث) فأفرد للرد عليه كتابه: (جمال الدين الأفغاني المفترى عليه)[٣].

ولما أراد الحزب السوري القومي بقيادة أنطون سعادة وسْمَ الشيخ عبد

---

(١) صدرت الطبعة الأولى للكتاب عن درا السلام بالقاهرة عام ٢٠١٠م.

(٢) صدرت الطبعة الأولى من الأعمال الكاملة للشيخ جمال الدين الأفغاني، القاهرة، ١٩٦٨م. وصدرت الطبعة الأولى من الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي عن دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٧٠م، ثم أصدرت طبعته الثانية المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت، ١٩٧٥م، ثم أعيد طبعه للمرة الرابعة عام ٢٠١٩م عن دار الشروق، وصدرت الطبعة الأولى للأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده في خمسة أجزاء،، بيروت، ١٩٧٢م، وصدرت طبعة أخرى عن دار الشروق، القاهرة ١٩٩٣م، وصدرت آخر طبعة لها ضمن أعمال مكتبة الأسرة (سلسلة التراث) ٢٠٠٩م، وصدرت الطبعة الأولى من الأعمال الكاملة للشيخ رفاعة الطهطاوي في خمسة أجزاء عن المؤسسة العربية، بيروت، ١٩٧٣م، وصدرت آخر طبعة لها ضمن أعمال مكتبة الأسرة (سلسلة التراث) ٢٠١٠م.

(٣) صدرت الطبعة الأولى للكتاب عن درا الشروق بالقاهرة عام ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ثم أصدر كتابا آخر بعنوان (جمال الدين الأفغاني بين حقائق التاريخ وأكاذيب لويس عوض)، عن دار السلام بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

الرحمن الكواكبي بوسم العلمانية، وكونه داعية من دعاتها ومناصرًا لأفكارها، خصَّ الشيخَ عبد الرحمن الكواكبي بدراسة مستوعبة أخرجها تحت عنوان: (الشيخ عبد الرحمن الكواكبي هل كان علمانيًا؟)[1]؛ ليرد بها على دعواهم من خلال نصوص تراث الكواكبي نفسه.

سادسًا: لما توجه أصحاب الفكر التنويري إلى الانتقال من تزوير المسيرة النهضوية لأعلام حركة التجديد والإحياء الإسلامي إلى تزوير التاريخ برمته خاصة في فترة النهضة الحديثة التي بدأها محمد علي منذ توليه حكم مصر عام ١٨٠٥م مرورًا بعصر الخديوي إسماعيل وانتهاء بفترة رئاسة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر – رحمه الله – ١٩٧٠م، فحاولوا خلع ثوب العلمانية على تلك الفترة التاريخية، بهدف الوصول إلى القول بأن النهضة الحديثة ما كان لها أن تقوم لها قائمة لولا تبني أربابها للفكر العلماني، فرد عليهم د. عمارة دعاواهم متسلحًا بوقائع التاريخ التي لا تجامل أحدًا ولا تحابيه، وقدم للمكتبة الإسلامية كتابه: (نهضتنا الحديثة بين العلمانية والإسلام).

سابعًا: على صعيد الجانب الاجتماعي، حاولت رائدات الحركة النسوية المعاصرة التأسيس لحركة (تحرير المرأة) في العالمين العربي والإسلامي وفق الرؤية التغريبية العلمانية، واستيراد رائدات النسوية الغربية وتقديمهن في صورة الأسوة والقدوة لنساء المسلمين، نهض الدكتور/عمارة للكشف عن خطورة هذه الحركات وأثرها على المجتمع، فأبرز الصور المشرقة لدور المرأة في المجتمع الإسلامي بداية من عصر النبوة والخلفاء الراشدين وانتهاء بعصور الإسلام المختلفة، فأخرج للمكتبة الإسلامية عدة مؤلفات في هذا المضمار، ومنها:

(١) صدرت الطبعة الثالثة للكتاب عن نهضة مصر بالقاهرة عام ٢٠٠٦م، وكان قبله قد أصدر كتابا يعرض فيه لجوانب العظمة في شخصية الكواكبي، بعنوان (عبد الرحمن الكواكبي شهيد الحرية ومجدد الإسلام) عن دار الشروق بالقاهرة الطبعة الثانية عام ١٩٨٨م.

(التحرير الإسلامي للمرأة الرد على شبهات الغلاة)[١]، وتبعه كتابه (شبهات وإجابات حول مكانة المرأة في الإسلام)[٢]، ثم تبعه كتابه: (تحرير المرأة بين الغرب والإسلام)[٣].

ثامنًا: لم يقتصر دوره على التأليف للكتب ونشر المقالات في الصحف والمجلات المختلفة لمناقشة الفكر العلماني، بل كانت له صولاته وجولاته في المناظرات العلمية التي شاهدتها الجماهير الغفيرة، ومنها:

١-مشاركته في المناظرة التي نظمها معرض القاهرة الدولي للكتاب يناير ١٩٩١م، وقد مثل فيها الجانب العلماني الدكتور فرج فودة والدكتور محمد خلف الله ودرا موضوعها حول (مصر بين الدولة المدنية والدولة الدينية)

٢- المناظرة التي أقيمت شيراتون بالعاصمة القطرية الدوحة بمدينة الدوحة في ١ أكتوبر ١٩٩٢م، وكان طرفها الآخر هو الدكتور/ فؤاد زكريا، ودار موضوعها حول (أزمة العقل العربي).

٣-المناظرة التي دارت بينه وبين الدكتور/ نصر حامد أبو زيد، على شاشة قناة الجزيرة عبر برنامج الاتجاه المعاكس عام ١٩٩٦م.

٤-المناظرة التي دارت بينه وبين الدكتوره/ نوال السعداوي، عام ١٩٩٨م، وقد فنَّد فيها كل شبهاتها ومغاطاتها خاصة في ما يتعلق بقضايا المرأة.

هذا، غير كثير من المناقشات التي تناثرت في ثنايا العديد من مؤلفاته التي سأجليها في موضعها من البحث إن شاء الله تعالى.

(١) صدرت الطبعة الأولى للكتاب عن درا الشروق بالقاهرة عام١٤٢١هـ/٢٠٠٢م

(٢) صدرت الطبعة الأولى للكتاب عن درا نهضة مصر بالقاهرة عام ٢٠٠٨م.

(٣) صدرت الطبعة الأولى للكتاب عن مكتبة الإمام البخاري بالقاهرة عام ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

المبحث الأول

تحرير المصطلحات إبرازاً لما تحويه من أفكار

من المعالم المنهجية التي التزمها د. عمارة في مواجهة الفكر العلماني بمختلف تياراته تحرير المصطلحات لكشف اللثام عن حقيقتها وإزالة عملية التمويه والخداع الفكري الذي مارسه جُلُّ المفكرين العلمانيين، وذلك من باب التحصين الفكري والثقافي لعقول الجماهير، وفي سبيل ذلك فقد حدد الهدف من ضبط المصطلحات – كإجراء ضروري للحوار بين أهل اللغات المختلفة والآراء المتباينة والمتعددة– بقوله: «لابد من الحوار بين أهل اللغات المختلفة والمتعددة – من ضبط وتحديد معاني المصطلحات المتداولة في المحاورات، والتي لها في كل لغة من اللغات مضامين ومفاهيم ومعان مختلفة ومتميزة عن نظائرها في اللغات الأخرى»(١).

ويؤكد على أن استخدام واستعمال المصطلح ليس حكرًا على أحد، بل هو مشاع بين الجميع، «لكن تحديد معاني هذه المصطلحات – عندما تختلف هذه المعاني باختلاف الثقافات– هو شرط لتمام الفهم في أية حوارات جادة بين المختلفين في الثقافات والعقائد والحضارات»(٢).

ولذلك فقد غدا تحرير المصطلح يمثل «مهمة أساسية، وأولية بالنسبة لأي حوار فكري حقيقي وجاد ينقذ حياتنا الفكرية من خطر الاستقطاب الحاد، ويوجد لغة فكرية واحدة بين الفرقاء المتحاورين»(٣).

---

(١) إزالة الشبهات عن معاني المصطلحات، محمد عمارة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠٠٩م، ص٨.

(٢) المرجع نفسه، ص٨.

(٣) معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام، محمد عمارة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٤م، ص١٢.

فالهدف الوحدة والتجمع، لا التفرق والتشرذم، وإيجاد لغة حوار مشتركة يلتقي الجميع على أرضها؛ لتكون منطلقًا لحوار فكري جاد يفهم فيه كل فريق الرسالة التي يريد الفريق الآخر إيصالها إليه، وإلا صار الحوار عقيم الثمرة خاويًا من الفائدة.

ومن أجل أن تثمر الحوارات الدائرة على الساحة الفكرية بمختلف أطيافها وثقافاتها وغاياتها، وتؤتي أكلها فقد أجهد الرجل نفسه في تجلية الغموض الذي اكتنف العديد من المصطلحات وتداولته الأقلام بِنَفَسٍ طويل تارة أو قصير تارة أخرى، وأفرد لهذه القضية عددًا من بحوثه ودراساته، وتنوعت عناوين هذه البحوث على حسب الغاية منها، فكتب (إزالة الشبهات عن معاني المصطلحات)، و(معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام) وقد تناول في هذا الأخير خمسة وثلاثين مصطلحًا، و(الإسلام بين التنوير والتزوير) إلى جانب ما تناوله من ضبط بعض المصطلحات في ثنايا مؤلفاته المتعددة [1].

وإذا كان هذا البحث يعنى بقضية العلمانية فإنني سأقتصر هنا على نماذج للمصطلحات المتعلقة بها، وكيف تناولها قلم د. عمارة، مبينا معالمها وموضحًا حدودها، ومنها:

١. العلمانية: شغل هذا المصطلح حيزًا واسعًا من كتابات د. عمارة، خاصة وأن تحريره له مثَّل جانبًا مهما في المعركة الفكرية التي اشتبك فيها مع الجانب العلماني، وجاء تحريره لمصطلح العلمانية من خلال تتبع جذور المصطلح وبداية ظهوره، مؤكدًا على أنه لا ينتمي للحضارة ولا للثقافة الإسلامية بل هو من المصطلحات الوافدة على العقل المسلم، والبيئة الإسلامية.

فبدأ بتعريف المصطلح من حيث النشأة والتكوين والظهور، فقال: «مصطلح

(١) ينظر على سبيل المثال في (الطريق إلى اليقظة الإسلامية)، (الإسلام في مواجهة التحديات)، (الإسلام بين التنوير والتزوير).

«العلمانية» هو الترجمة التي شاعت – بمصر والمشرق العربي – للكلمة الإنجليزية (SECULARISM) بمعنى الدنيوي، والعالمي، والواقعي – من الدنيا والعالم والواقع – المقابل «للمقدس» أي الديني الكهنوتي»[١].

ويضيف قائلاً: «ولأن هذا هو معنى المصطلح في نشأته وملابساته الأوربية– النزعة الدنيوية، والمذهب الواقعي في تدبير العالم من داخله – فلقد كان قياس المصدر هو «العالمية» أو «العالمانية» لكن صورته غير القياسية – «العلمانية» – هي التي قدر لها الشيوع والانتشار»[٢].

ويؤكد على أن أول من أدخل هذا المصطلح بهذا المعنى هو «أحد المترجمين عن الفرنسية– إلياس بقطر المصري– والذي عمل مترجمًا للحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨–١٨٠١م)... وترجم هذا المصطلح عن الفرنسية، عندما ترجم المعجم الفرنسي إلى العربية سنة ١٨٢٨م»[٣].

وعلى إثر هذا التعريف المصطلحي للعلمانية بدأ فضيلته في تتبع الملابسات التي استدعت ظهورها في المجتمع الأوربي من حيث تسلط الكنيسة الأوروبية على رقاب المجتمعات بدعوى الدين، ومباركة القساوسة لظلم الحكام للشعوب والسيطرة على ثروات البلاد والاستئثار بخيراتها، فالعلاقة بين السلطة الروحية الممثلة في الكنيسة وبين السلطة الزمنية الممثلة في الملوك والأمراء كانت علاقة منفعة متبادلة، ذاق ويلاتها الشعوب، مما استدعى هذه الجماهير – عبر من أوتوا بسطة في الفكر – أن يفكروا في العودة بأوربا إلى سابق عهدها قبل دخول المسيحية إليها، أي

(١) معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام، محمد عمارة، ص٢٣، نقلاً عن: معجم العلوم الاجتماعية، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٧٥م، وقاموس علم الاجتماع، إشراف: عاطف غيث، القاهرة، ١٩٧٠م، والعلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق، محمد البهي، القاهرة، ١٩٧٦م، ص٨،٧.

(٢) معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام، محمد عمارة، ص٢٣.

(٣) الحوار بين الإسلاميين والعلمانيين، محمد عمارة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٠م، ص ٩، نقلًا عن: علماني وعلمانية.. تأصيل معجمي، السيد أحمد فرج، مجلة الحوار، ع٢، ١٤٠٦هـ– ١٩٨٦م.

بالعودة إلى اليونانية وما تميزت به من أدب وفن وفلسفة، وكذلك الحضارة الرومانية وما تميزت به من سياسة وقانون، فقامت الدعوات التي تنادي بانزواء المسيحية وانكفائها داخل الكنيسة وإنهاء علاقتها بل بترها من دوائر الحكم والسياسة، والاقتصاد والاجتماع.

وكان من مظاهر ذلك أن «استندت العلمانية في تأسيس «دنيويتها» على التصور الأرسطي لنطاق عمل الذات الإلهية – فهو مجرد خالق فرغ من الخلق، وانحصرت عنايته بذاته، دونما رعاية أو تدبير للمخلوقات كصانع الساعة، الذي أودع فيها أسباب عملها، دون حاجة لوجوده معها وهي تدور!»[(١)].

والمتتبع لما كتبه د. عمارة حول مصطلح العلمانية، يتأكد لديه أنه ابتغى بذلك التأكيد على حقيقة مفادها: أن الأجواء التي صاحبت نشأة العلمانية في العالم الأوروبي لم يكن لها مكان في المجتمع المسلم، في أي مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي، وإنما تم استيراد المصطلح شكلًا ومضمونًا في ركاب الحملة الاستعمارية الحديثة على العالم الإسلامي، والتي يرى أنها بدأت بالحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨– ١٨٠١م) بقيادة نابليون بونابرت، وبلغت ذروتها بالاحتلال الإنجليزي لمصر (١٨٨٢م) وأنه أريد نقل التجربة كاملة إلى المجتمع المسلم ليتسنى للعالم الأوربي السيطرة على مقدرات العالم الإسلامي المادية، بعد الهيمنة الفكرية والثقافية [(٢)].

٢. التنوير: لما كان هذا المصطلح من المصطلحات التي تتردد كثيراً في أروقة الجانب العلماني، وأدبياته، ويطلقون على النتاج الفكري المنبثق من الأقلام العلمانية أنه محاولة لتنوير المجتمعات العربية لدرجة أن احتفالات المثقفين العلمانيين بمئوية مجلة الهلال القاهرية سنة ١٩٩٢م، جعلوا شعارها «مائة عام من التنوير»، فقد آثر

(١) معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام، محمد عمارة، ص٢٥.

(٢) للمزيد من التفصيل حول هذه المسألة يراجع: الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية، محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، ص٢٣–٣١، والإسلام والسياسة الرد على شبهات العلمانيين، محمد عمارة، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص٦٣–٧٢.

د. عمارة أن يجلي معناه ليكون القارىء على بينة من أمره، فقال: «عندما يذكر مصطلح «التنوير» (Enlightenment) في الحياة الفكرية والثقافية، فإنه يستدعي إلى الذهن نسقًا فكريًا أوربي النشأة والمضمون والإيحاء، بل لقد غدا عنوانًا على نسق فكري ساد في مرحلة تاريخية محددة من مراحل تطور الفكر الغربي الحديث»(١).

ونقل عن مجمع اللغة العربية التعريف الذي اعتمده لمصطلح التنوير والذي حدد المرحلة التي أشار إليها آنفًا، فهو «حركة فلسفية، في القرن الثامن عشر، تعتد بالعقل، والاستقلال بالرأي، وتؤمن بأثر الأخلاق، وتقوم على فكرة التقدم والتحرر من السلطة والتقاليد»(٢).

ويزيد الأمر إيضاحًا بكشف الملابسات والسياق التاريخي والحضاري الذي بزغ فيه نجم مصطلح التنوير الذي غدا فلسفة للمجتمع الأوروبي في القرن الثامن عشر، ولونًا من ألوان القطيعة مع التحكم الكنسي اللاهوتي في المجتمع وردة إلى فترات الحضارة اليونانية بفلسفتها الإغريقية الوثنية، والحضارة الرومانية بقانونها وسياستها المُنبتَّة الصلة بالسماء، فيقول: « لقد كان التنوير الأوربي رفضا للعصور المظلمة التي سادت أوربا عندما حكمتها البابوية باللاهوت الكنسي، ولقد نظر هذا التنوير إلى ظلام تلك العصور باعتبارها نازلة وكارثة وجملة معترضة في طريق أوربا الفكري، فتقدم فلاسفته لطي هذه الصفحة، وإحلال التنوير محلها، وعلى هذه الفلسفة التنويرية تأسس الإحياء الأوربي والنهضة الأوربية الحديثة»(٣).

إذن، التنوير كمصطلح غربي وافد على الحضارة الإسلامية، نشأ في أوروبا في القرن الثامن عشر كنوع من الاعتراض على اللاهوت الكنسي، وإحلال العقل محل الدين، بحيث لا يكون هناك سلطان على العقل إلا للعقل.

---

(١) الإسلام بين التنوير والتزوير، محمد عمارة، ص١٩، معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام، محمد عمارة، ص٥٤.

(٢) المرجع السابق، ص٥٤.

(٣) الإسلام بين التنوير والتزوير، محمد عمارة، ص١٩.

٣. الخروج من آسيا: ردَّدَ هذا المصطلح الأستاذ سلامة موسى[١]، أثناء تحفيزه عموم الشعوب الإسلامية والعربية للانسلاخ من هويتها الثقافية، والانتماء للثقافة والحضارة الأوروبية الغربية، فالأولى حضارة ثقافتها قديمة بالية، والثانية حضارة ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ الإغريقي واليوناني، فقال: «يجب علينا أن نخرج من آسيا وأن نلتحق بأوربا. فإني كلما زادت معرفتي بالشرق، زادت كراهيتي له، وشعوري بأنه غريب عني، وكلما زادت معرفتي بأوربا، زاد حبي لها، وتعلقي بها، وزاد شعوري بأنَّها مني وأنا منها»[٢].

وفي سبيل تنبيه القارىء ألا يعتقد أن المراد من آسيا هنا تلك القارة المعروفة جغرافيا، أو أن الرجل يريد توجيه قرائه للهجرة من مكان إلى مكان والانتقال من قطر إلى قطر آخر، حرر المصطلح، وقال: « الرجل يدعو إلى الخروج من آسيا و«الالتحاق بأوروبا» وبديهي أنه لم يكن داعية هجرة من جغرافية المكان، فآسيا هنا مصطلح حضاري وثقافي معناه: الإسلام وحضارته»[٣]، وحتى لا يكون الأمر مجرد دعوى قابلة للصدق والكذب عضد د. عمارة دعواه بالأدلة المثبتة

(١) سلامة موسى (١٣٠٤- ١٣٧٨هـ= ١٨٨٧- ١٩٥٨م) كاتب مضطرب الاتجاه والتفكير، ولد في قرية كفر العفي بقرب الزقازيق. وتعلم بالزقازيق وباريس ولندن، ودعا إلى الفرعونية، شارك في تأسيس حزب اشتراكي، لم يلبث أن حله الإنجليز واعتقلوه وسجنوه، وجحد الديانات في شبابه وعاد إلى الكنيسة في سن الأربعين، وأصدر مجلة (المستقبل) قبل الحرب العامة الأولى وتعطلت بسبب الحرب. وعمل في التدريس ثم رأس تحرير مجلة الهلال، حتى عام ١٩٢٧م، وصنف وترجم ما يزيد على ٤٠ كتاباً، طبعت كلها. منها: (حرية الفكر وأبطالها في التاريخ)، و(نظرية التطور وأصل الإنسان)، و(أشهر قصص الحب التاريخية)، وغيرها، مات في أحد مستشفيات القاهرة. وكان كثير التجني على كتب التراث العربي، يناصر بدعة الكتابة بالحرف اللاتيني.
ينظر: الأعلام، الزركلي، ١٠٧/٣، ١٠٨.

(٢) الإسلام بين التنوير والتزوير، محمد عمارة، ص١١٤، نقلًا عن: اليوم والغد، سلامة موسى، ط١، القاهرة، ١٩٢٨م، ص٥-٧.

(٣) الإسلام بين التنوير والتزوير، محمد عمارة، ص١١٥.

لصدقها وموضوعيتها من خلال الاستشهاد بما ورد في كتابات أساتذة سلامة موسى من المفكرين الغربيين الذين سبقوه إلى ذات الفكرة، ومنهم:

أ. المستشرق والسياسي الفرنسي جبرييل هانوتو [١]: حيث عبر هذا المستشرق عن بداية انسلاخ «تونس» من الإسلام وحضارته، والتحاقها بالحضارة اللاتينية، بقوله: «يوجد الآن بلد وأرض تنفلت شيئًا فشيئًا من مكة ومن الماضي الآسيوي»[٢]... «فمكة والماضي الآسيوي هما عنوان على الإسلام وثقافته وحضارته، وليس مصطلحًا جغرافيًا مجردًا»[٣].

ب. المراسلات التي دارت بين كارل ماركس وفردريك إنجلز: فـ«نمط الإنتاج الآسيوي» – الذي تحدث عنه كارل ماركس في مراسلاته مع فريدريك إنجلز – هو نمط الإسلام في التملك والإنتاج»[٤].

ج. المجلات والجمعيات الاستشراقية التي حملت كلمة «آسيا» كانت متخصصة في دراسة الإسلام وحضارته»[٥].

٤. مصطلح الشريعة بين اللغة والاصطلاح: لقد نذر المستشار محمد سعيد العشماوي نفسه لمواجهة كل محاولة يمكن من خلالها أن تكون الشريعة الإسلامية واقعًا عمليا في حياة الناس، وفي واقع المجتمعات الإسلامية، ودبَّج في سبيل هذه الغاية المقالات والمؤلفات، واحتفت بفكرته دوائر الفكر العلماني.

وقد كان من منهجية الرجل وخطته ممارسة سياسة التلاعب بالألفاظ

(١) المرجع نفسه، ص٥٦.

(٢) المرجع نفسه، ص١١٥، نقلًا عن الإسلام والرد على منتقديه، مجموعة من العلماء مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٢٨م، ص ٢٧.

(٣) المرجع نفسه، ص١١٥.

(٤) المرجع نفسه، ص١١٥.

(٥) الإسلام بين التنوير والتزوير، محمد عمارة، ص١١٥.

والمصطلحات بطريقة لا يستوعب خبثها ومكرها إلا من كان له حظ وافر من تحصيل علوم اللغة العربية والشريعة الإسلامية، وقد تبدّى هذا التلاعب من خلال شرحه لمصطلح الشريعة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي، فأقر بالمعنى اللغوي الذي ورد في القرآن الكريم، وفي « لسان العرب» من كونها تعني: « مورد الماء» أي الطريق والسبيل إليه، مؤكدًا على ضرورة التمسك به، مع دعوته إلى ضرورة التخلي عن المعنى الاصطلاحي الذي أجمع عليه علماء المسلمين حيث إنه لم يدل عليه اللفظ حال وروده في القرآن، ولم يقصده علماء المسلمين بل هو من صنع تقلبات الأحداث التاريخية.

يقول العشماوي: « الشريعة لفظا: ورد لفظ الشريعة في القرآن الكريم مرة واحدة، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾[1]، ثم ورد بمصدر وتصريف ثلاث مرات: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾[2]، ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[3]، ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾[4]، وفي كل هذه الآيات، لا يعني لفظ الشريعة الأحكام القانونية أو التشريعية، ولكنه يعني: الطريق، المنهج، السبيل، وما شابه، وهذا المعنى الوارد في القرآن الكريم عن لفظ «الشريعة» هو بذاته المعنى المقصود في صحيح اللغة العربية، وفي معاجمها جميعًا. فقد ورد في هذه المعاجم أن لفظ شرع – لغة – يعني: ورد، الشرعة والشريعة هي مورد الماء أي الطريق والسبيل إليه (لسان العرب: مادة: شرع) لكن معنى اللفظ {الشريعة} تغير عبر التاريخ.. حتى أصبح يعني مجموعة الأحكام العملية المستنبطة من الكتاب والسنة أو الرأي والإجماع)

(١) سورة الجاثية من الآية ١٨.

(٢) سورة الشورى من الآية ١٣.

(٣) سورة المائدة من الآية ٤٨.

(٤) سورة الشورى من الآية: ٢٢.

على المعنى الاصطلاحي...، وإذا كان من السائغ في العلوم الاجتماعية استعمال الألفاظ بمعناها الاصطلاحي الذي تحولت إليه عبر التاريخ وتبدلت إليه من خلال الاستعمال، فإن ذلك لا يسوغ أبدًا بالنسبة لألفاظ القرآن الكريم؛ لأنه يؤدي إلى تحريف معاني الآيات الكريمة»(١).

وقد حدد د. عمارة بغية العشماوي مما قاله بأنها « محاولة تجريد الشريعة الإسلامية من الإسلام... من خلال العدول عن المعنى الاصطلاحي للشريعة، والوقوف فقط عند معناها اللغوي»(٢).

ومن ثمَّ «تسقط كل الدعوات التي تريدها حاكمة لسياسة الدولة وتنظيم الاجتماع الإنساني وتدبير العمران البشري»(٣).

وأمام التدليس العشماوي الذي مارسه ببراعة على القارىء وقف د. عمارة ليجلي الحقائق من خلال:

أ. إبراز قصر باع العشماوي في فهم مصطلح الشريعة من خلال النصوص القرآنية الواضحة للعيان، فقال: «كيف لم ير في الآيات التي نقلها من المصحف، والتي ورد فيها لفظ الشريعة ومشتقاته.. كيف لم ير لفظ «الدين»؟ ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾(٤)، ﴿شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾(٥)،، فالآيات تتحدث عن شريعة وشرع من الدين.. وليس عن قطعة من الأرض تؤدي

(١) الإسلام السياسي، محمد سعيد العشماوي، مكتبة المدبولي الصغير، القاهرة، ط ٤، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م، ص٥٠، ١٣١، ١٧٨، ١٧٩، أصول الشريعة، محمد سعيد العشماوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص١٧٨، معالم الإسلام، محمد سعيد العشماوي، ص١٦٢- ١٦٤، ١٠١- ١٠٣.

(٢) سقوط الغلو العلماني، محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ص١٩١.

(٣) المرجع السابق، ص١٩١.

(٤) سورة الشورى من الآية ١٣.

(٥) سورة الشورى من الآية ٢٢.

إلى مورد الماء!.. وإذا كانت الشريعة من الدين، فهي معالم على طريق التدين به، وأحكام مستمدة من أصوله، إنها النهج والطريق الديني، وليس المائي... ولطريقها ونهجها معالم دينية – قيم ومبادىء وقواعد وأحكام – تميزه عن الطرق والمناهج اللادينية... فالمعنى الاصطلاحي للشريعة «الوضع الإلهي الثابت، الذي يتهذب به المكلف معاشاً ومعاداً» هو المستقى من القرآن»[1].

ب.إثبات كذب العشماوي على قارئه باجتزائه لما نقله على لسان ابن منظور في معجمه «لسان العرب»: حيث اقتصر العشماوي على تعريف صاحب اللسان للشريعة بأنها مورد الماء، وإيهام القارىء بأنه لم يزد على ذلك، فتتبع د. عمارة ما ورد في اللسان ليفاجىء القارىء بأن ابن منظور قد أطال النفس في تعريف مصطلح الشريعة حتى ضم إلى المعنى اللغوي صنوه الاصطلاحي، فنقل عنه: «قال الليث: وبها سُمِّي ما شرع الله للعباد شريعة من الصوم والصلاة والحج والنكاح وغيره... والشريعة والشِّرْعَةُ: ما سن الله من الدين وأمر به، كالصوم والصلاة والحج والزكاة وسائر أعمال البر»[2].

ولذلك فقد خص د. عمارة مصطلح (الشريعة) بالشرح والتفصيل في كتابه (معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام) وجلى مفهومها مباينًا بينها وبين (الفقه) كمصطلح، فالشريعة وضع إلهي ثابت، بينما الفقه اجتهاد إنساني في إطار الشريعة الإلهية، فالشريعة أشمل وأوسع.

وبنص عبارته: «الشريعة تشمل ما يتعلق بكيفية العمل، وتسمى فرعية وعملية، ولها دُوِّن علم الفقه، فهو علم الفروع، كما تشمل الشريعة ما تعلق بكيفية

(١) سقوط الغلو العلماني، محمد عمارة، ص ١٩٣

(٢) سقوط الغلو العلماني، محمد عمارة، ص ١٩١، نقلًا عن: لسان العرب، ابن منظور الإفريقي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ط١، ٢٠١٤م، مادة «شرع» مج٤، (٨/ ٥٩).

الاعتقاد وتسمى أصلية واعتقادية، ولها دُوِّن علم الأصول (أصول الدين) الذي هو علم الكلام»[١].

كما أنه صدر كتابه (الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية) بشرح واف ومفصَّل لمصطلح الشريعة، وتتبع بنائها للمجتمع المسلم عبر مراحل التاريخ الإسلامي المختلفة؛ ليؤكد على خطأ العشماوي في اقتصاره على الوقوف بالمصطلح عند مضمونه اللغوي، وتعمده التدليس في إخفاء المعنى الاصطلاحي نظرًا لكونه لا يتوافق مع رؤيته العلمانية التغريبية.

وهذه المنهجية يحتاجها الوسط الدعوي في مناقشاته مع الجانب العلماني، ولكي يتم تفعيلها لا بد من تدريب الدعاة على التعامل مع المصادر المعجمية، والتفريق بين المعاجم اللغوية، والمعاجم الاصطلاحية فكل منهما له دوره المُكَمِّلُ لدور الآخر، كما أنها عامل رئيس في كشف الخداع والتدليس الذي يمارسه الجانب العلماني في تلاعبه بالألفاظ والمصطلحات.

(١) معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام، محمد عمارة، ص٧٠ وما بعدها.

المبحث الثاني

الارتكاز على المنهج المقارن لبيان الحقائق

المطلب الأول

إقراره للمنهج المقارن كأداة للبحث والتفنيد[1].

إذا كانت المقارنة منهجًا قد أقرته واعتمدته مناهج البحث العلمي وأولته عنايتها، خاصة بين الأديان لدرجة أن يصبح علمًا قائمًا بذاته مكتمل الأركان، أطلق عليه العلماء المتخصصون «علم مقارنة الأديان» فإن المقارنة بين الأفكار في مختلف الأيديولوجيات الفكرية والمذهبية أمر لا غنى عنه، وهذا ما دعى د. عمارة أن يعتمد على هذه المنهجية في المقارنة بين العلمانية كتيار فكري، وبين الإسلام كدين فنراه يعرض لسمات وقسمات الفكر العلماني الناشىء في أوروبا مع مقارنته بما هو قائم في أروقة الفكر الإسلامي.

ومن هذه السمات التي رصدها فضيلته:

١. تميُّز قيم الفكر العلماني بالنفعية.
٢. مساندة المجتمع العلماني للتغيير.
٣. فقدان الاهتمام بما هو خارق للطبيعة.
٤. فقدان الاهتمام بالقيم المرتبطة بالنزعة التقليدية [2].

---

(١) طريقة المقارنة: هي صورة من صور (المنهج الحواري) بواسطتها تنجز الدراسات المقارنة، أي الدراسات التي تسعى إلى إبراز مواطن الوفاق، أو الخلاف بين قضيتين، أو قضايا في موضوع واحد، بصورة (تزامنية) مع تفسير ذلك وتعليله. أبجديات البحث في العلوم الشرعية محاولة في التأصيل المنهجي، فريد الأنصاري، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ط ٥، ١٤٣٧هـ-٢٠١٦م، ص ٢٢٥.

(٢) انظر: نهضتنا الحديثة بين العلمانية والإسلام، محمد عمارة، دار الرشاد، القاهرة، ط٢، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، ص٢٠- ٢٣.

وفي سبيل الإدراك – المرتكز على فهم الواقع – لأسباب تقبل المجتمع الأوروبي المتدين بالديانة المسيحية لفكرة العلمانية، وإسهام بعض تعاليم المسيحية الغربية في إيجاد جذور الفكر العلماني، في الوقت الذي انتفى ذلك تماما عن تعاليم الإسلام، طالب فضيلته العقلاء بعقد مقارنة في الديانتين من حيث خمسة عناصر، لنخرج من هذه المقارنة أي ديانة من الديانتين قد أسهمت هذه العناصر الخمسة في تمهيد التربة لاستقبال بذرة العلمانية وإنباتها وتمتد جذورها.

أولًا: في المسيحية الغربية: هناك خمسة أسباب تمثلت في:

١. صورة «الله» وآفاق علمه وعمله في الفكر الإغريقي، والأرسطي خاصة، حيث «الله» مجرد خالق للعالم، لا علاقة له بتدبيره ورعايته، فهنا جذور للعلمانية.

٢. المقاصد الدنيوية – اللا أخلاقية – للقانون الروماني، قانون المنفعة غير المضبوطة بمقاصد الدين وأخلاقياته، فهنا جذور للعلمانية.

٣. الفصل اللاهوتي بين ما لقيصر وما لله، والذي فتح الباب للعلمانية.

٤. عقيدة الصلب، وهل مَهَّدَ موت «الابن» في اللاهوت لموت «الأب» في الثقافة العلمانية؟

٥. الثنائية الحادة والمتناقضة – في التطور الغربي – بين: لاهوتيين لا عقول لهم، ورد الفعل الذي أثمر أخصائيين لا روح لهم، وعلماء لا قلوب لهم! [(١)].

وعلى الصعيد الآخر فقد دعا – رحمه الله – إلى دراسة ذات العناصر الخمسة في ضوء نظائرها في الإسلام:

(١) مأزق المسيحية والعلمانية في أوروبا (شهادة ألمانية) للقس الألماني/ جوتفريد كونزلن، تقديم وتعليق: محمد عمارة، سلسلة في التنوير الإسلامي (٤٤)، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م، ص٤٢، ٤٣.

١. صورة نطاق عمل الذات الإلهية: فالله ليس مجرد خالق، وإنما خالق ومدبر:

﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ (٢).

٢. علاقة الدين بالدنيا: التمييز، لا الفصل ولا الوحدة، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٣). ، والعطف والمغايرة، فالدين لله والوطن للجميع، والوطن والجميع لله أيضًا.

٣. علاقة الشريعة بالفقه.

٤. علاقة العقل بالنقل، فلا مقابلة بين العقل والنقل، لأن مقابل العقل هو الجنون، وليس النقل، ونحن نقرأ النقل بالعقل، ونحكم العقل بالنقل.

٥. علاقة الذات بالآخر:

-التعددية: في الشعوب والقبائل، والألوان والأجناس. في الألسنة واللغات.. أي القوميات. في المناهج.. أي الحضارات. في الملل والشرائع والديانات (٤).

هذه المقارنة تنطق بلسان الحال والمقال بأن الأسباب الداعية إلى وجود أرض خصبة للعلمانية في المجتمع الأوروبي – نظرًا لاستجلاب تعاليم المسيحية

(١) الأعراف: ٥٤.

(٢) طه: ٥٠.

(٣) الأنعام: ١٦٢ – ١٦٣.

(٤) مأزق المسيحية والعلمانية في أوروبا (شهادة ألمانية) للقس الألماني/ جوتفرايد كونزلن، تقديم وتعليق: محمد عمارة، ص٤٣، ٤٤.

الرئيسة لها– لا يوجد لها مكان على الإطلاق في ديانة الإسلام.

وفي كتابه (الإسلام بين التنوير والتزوير) يعقد مقارنة بين «التنوير الغربي»، و«التجديد الإسلامي» ليبرز من خلالها الفروق بينهما من خلال خمسة عناصر:

١. من حيث ارتباط كل منهما بالدين: «ففلسفة «التنوير» كما عرفتها أوروبا في القرن الثامن عشر الميلادي، كانت حركة «إحياء – حضاري – لا ديني» أحلت «العقل، والعلم، والفلسفة» محل «الله والدين» خاصة في شئون الاجتماع الإنساني والعمران البشري، بينما التجديد الإسلامي على مر تاريخ الإسلام وحضارته هو «إحياء ديني»، لأن «التجديد» آلية فكرية تزيل عن ثوابت الدين ومبادئه وأركانه – في العقيدة والشريعة والقيم – بدع الزيادة والنقص، وشوائب التصورات الغريبة، فتعيد للمنابع نقاءها، ليكون فعلها أفضل وعطاؤها أكثر وموردها أكثر صفاء»[١].

٢. من حيث الأسباب الداعية لكل منهما: فقد «جاء التنوير الغربي ثورة على الكنيسة والبابوية واللاهوت، احتبست النصرانية الغربية داخل الكنائس ومدارس اللاهوت وأطر العلاقات الفردية بين الإنسان وخالقه، لينفرد إحياؤها العلماني –اللاديني– بميادين الدنيا والاجتماع البشري والعمران الإنساني... بينما التجديد الإسلامي على مر تاريخه، إعمالًا لقانون إسلامي، وسنة نبوية شريفة، جعلا منه القاعدة التي يجب أن تسود أبدًا في حياة الفكر الإسلامي فعن رسول الله ﷺ: «يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها»[٢]، حتى لقد تحول «التجديد» إلى علم وفن تؤلف فيه وفي

(١) الإسلام بين التنوير والتزوير، محمد عمارة، ص٢٢٣.

(٢) أخرجه أبو داوود في سننه، ك: الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة، حديث رقم (٤٢٩١)، وإسناده صحيح.

أعلام الرسائل والأسفار في تراث الإسلام وتاريخ المسلمين»[١].

٣. من حيث العلاقة بمصادر المعرفة: فالتنوير تيار مادي بحت يقدسها ويعظمها ولا يرى خلافها ولا خلفها، بينما التجديد الإسلامي ينتفع بالمادة ويؤسس بها حضارة، لكنه لا يقطع صلته بالسماء الموصولة بالوحي الإلهي، «فقد جاء التنوير الغربي ليقف بمصادر المعرفة والعلم عند سنن الكون المادي وقوانينه، رافضًا أن يكون عالم الغيب، والوحي الذي جاء بنبئه مما يعتمد عليه كمصدر للعلم والمعرفة.. بينما كان التجديد الإسلامي يعيد التكامل والتوازن إلى مصادر المعرفة، وهي آيات الله في كتابيه: كتاب الوحي المقروء وكتاب الكون المنظور، فمهمة التجديد تحقيق تكامل مصادر المعرفة، عندما يحدث خلل في تكاملها»[٢].

٤. من حيث سبل المعرفة: فالتنوير قد اقتصر على العقل والتجريب، بينما التجديد الإسلامي قد اتخذ من العقل، والنقل، والتجريب، والوجدان سبلًا أربعة للمعرفة [٣].

٥. من حيث السياق التاريخي والملابسات الحضارية: فالتنوير الغربي جاء «ثورة تعيد البابوية واللاهوت والكنيسة إلى مواقعها الطبيعية والأصلية، بينما السياق الإسلامي والملابسات التاريخية والحضارية الإسلامية، والطبيعة المتميزة للرسالة الإسلامية، لم تعرف شيئًا من هذا الفعل الذي جاء التنوير الغربي رد فعل له»[٤].

٦. من حيث المهمة المنوطة بكليهما: فالتنوير الغربي ابتغى إسقاط فترة تحكم

(١) الإسلام بين التنوير والتزوير، محمد عمارة، ص٢٢٤.

(٢) الإسلام بين التنوير والتزوير، محمد عمارة، ص٢٢٤.

(٣) انظر: المرجع نفسه، ص٢٢٤، ٢٢٥.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٢٤، ٢٢٥.

الكنيسة بنصرانيتها القابضة باسمها على رقاب الشعوب، أما التجديد الإسلامي فقد كانت مهمته وصل الحاضر بالماضي للإفادة منه في المستقبل القريب والبعيد [١].

وبرصد هذه الحيثيات الست المرتكزة على منهج المقارنة يترك د. عمارة للقارىء الحكم ليستبين له الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وليحدد موقفه من التنوير الغربي العلماني، ومن تعاليم الإسلام المتسمة بالشمول والكمال.

(١) انظر: المرجع نفسه، ص ٢٢٦.

المطلب الثاني

الإحاطة بالمنجز المعرفي للخصم استعداداً لمناقشته موضوعياً

لم يكن الدكتور عمارة مفكرًا من الطراز الذي تهيجه العاطفة الإسلامية للدفاع عن دينه لمجرد جملة سمعها تلوكها الألسنة، أو لمجرد خبر تنشره إحدى الصحف والمجلات، أو انسياقًا خلف فقاعة إعلامية يراد بها تهييج الرأي العام نحو شخصية من الشخصيات أو فكرة من الأفكار.

لم يكن د. عمارة واحدًا من هؤلاء – وما أكثرهم – وإنما كان مثالًا للعالم المتثبت مما يشاع أو يقال، محققًا لقول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾[1]، وبالتالي فقد ألزم نفسه منهجًا قلَّ أن يتوفر لكثير ممن تصدوا بالرد والمناقشة للأفكار والتيارات الوافدة على الفكر الإسلامي، ومنها تيار العلمانية، هذا المنهج تمثَّل في الإحاطة بالمنجز المعرفي للخصم قبل مناقشته، خاصة وأن معظم أدبيات التيار العلماني اكتظت بالمتناقضات التي تُقَوِّضُ الدعاوى العلمانية من أساسها.

وقد سجل ذلك بقلمه في مواطن عدة، وسأضرب لذلك أمثلة تجلي هذا المنهج وتؤكده:

أولًا: مناقشته للمشروع الفكري للمستشار محمد سعيد العشماوي:

تناول د. عمارة مشروع المستشار العشماوي عبر مناقشة آرائه وأفكاره التي ضمَّنها مشروعه الفكري المتعدد القسمات، والذي جاء في أكثر من عشرة كتب، فرد على هذه الطروحات الفكرية في كتابه (سقوط الغلو العلماني)، حيث ذكر في مقدمته: «إننا سنعرض في هذا الكتاب للمشروع الفكري للمستشار عشماوي، من

(١) سورة الحجرات الآية ٦.

خلال قراءة موضوعية ومتأنية لأعماله الكاملة – كتبًا ومقالات – برغم التكرار الشائع فيها على نحو منقطع النظير!! مركزين على قضاياه المثيرة للجدل، مجتهدين – قدر الوسع والطاقة – أن يكون الحكم فيها وعليها للعقل والمنطق، ولثوابت الفكر الإسلامي، قرآنًا وسنة، وما اجتمعت عليه الأمة أو اطمأنت إليه فتلقته بالقبول من تراث مدارسها ومذاهبها الفكرية عبر تاريخها الحضاري الطويل»[١].

ثانيًا: أصدر د. نصر حامد أبو زيد عدة مؤلفات قام بتدريس بعضها في أروقة كلية الآداب بجامعة القاهرة، وتقدم بهذه المؤلفات للترقية لدرجة أستاذ، وكتبت اللجنة العلمية المنوط بها ترقية الرجل تقريرًا سلبيًا أوقف ترقيته، ثم أصدرت محكمة استئناف القاهرة، دائرة الأحوال الشخصية، في الاستئناف رقم ٢٨٧ لسنة ١١١، في ٦/١٤/ ١٩٩٥م، والذي قضت فيه بالتفريق بين الدكتور نصر وزوجته، تأسيسًا على ثبوت ارتداده عن دين الإسلام.

وكان للدكتور عمارة موقف يتسم بالهدوء والتأني وانتظر لحين انتهاء العاصفة التي امتلأت بها الساحات الفكرية والمنتديات الثقافية، وسوِّدت فيها صحائف الجرائد والمجلات، وكان ثمرة هذا الهدوء والتأني إخراج كتابه (التفسير الماركسي للإسلام) ولم يكن إصدار هذا الكتاب إلا ثمرة من ثمار تتبعه للنتاج العلمي الذي سال به قلم الدكتور نصر حامد أبو زيد.

وإذا تركنا القول هنا للدكتور عمارة ليقص علينا نبأ هذا التتبع فسنجده يقول: بدأت ألتفت إلى دراسات الدكتور نصر، والتي لاحظت أنه يخص بها، أساسًا، الدوريات الماركسية واليسارية «قضايا فكرية»، و«أدب ونقد»، «اليسار»

(١) سقوط الغلو العلماني، محمد عمارة، ص ١٣.

و«الأهالي» في مصر، و«الطريق» في بيروت.. إلخ.

لكنني لاحظت، أيضًا، اهتماماته الأساسية بظاهرة المد الإسلامي المعاصر، وليس بقضايا النقد والتحليل للنصوص الأدبية.. ولم أتوقف كثيرًا عند هذه الملاحظة... لكن الأمر الذي أثار القلق في نفسي، وفجر لدي العديد من علامات الاستفهام، قد حدث عندما رأيت – في معرض القاهرة الدولي للكتاب – مؤلَّف الدكتور أبو زيد (مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن)»[١].

ثم يقول: «ومنذ ذلك التاريخ، بدأت أجمع مؤلفات الدكتور نصر، على أمل أن يتيح لي برنامج عملي فرصة لقراءتها، كما يقرأ «المشروع الفكري» قراءة متكاملة، علها تجيب على ما تفجر لدي من علامات استفهام»[٢].

ولما كانت وتيرة الأحداث متسارعة، وتفجرت قضية الدكتور نصر سريعًا قبل أن يستوعب د. عمارة المشروع الفكري للرجل قراءة ودراسة فاحصة متأنية، لم يدع للحماسة مكانًا في سرعة الرد قبل الاستيعاب، وقد عبر عن هذه الأحداث بقوله: «لكن القصف الإعلامي الذي تفجر في ساحتنا الثقافية والفكرية، حول أفكار الدكتور نصر، قد سبق قراءتي لأعماله الفكرية، اللهم إلا بعض دراساته ومقالاته في بعض الدوريات الماركسية واليسارية.. ولذلك آثرت أن أقف بعيدًا عن المشاركة في هذا العراك»[٣].

ثالثًا: كان لسلامة موسى مشروع فكري استهدف به أن يكون حلقة في سلسلة المشروع التغريبي العلماني القاطع لصلة الأمة المصرية عن جذورها العربية الإسلامية وإلحاقها بالحضارة الأوروبية بفلسفتها الإغريقية ووثنيتها اليونانية، فتصدى له د. عمارة بإبراز العوار الفكري لهذا المشروع التغريبي من

(١) التفسير الماركسي للإسلام، محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ص٧، ٨.

(٢) المرجع السابق، ص٨.

(٣) المرجع السابق، ص ٨.

خلال تتبع مشروعه بأناة وتؤدة وعرض نصوصه بتناقضاتها وأخطائها حتى لا يكون متجنيا على الرجل ولا مفتئتاً على أفكاره، وصرح بذلك قائلا: «ونحن مقبلون على عرض ملامح وأركان «التنوير – الغربي – العلماني»، كما تجسد في المشروع الفكري لسلامة موسى.. نبدأ باستعراض ملامح هذا المشروع.. ومن خلال **نصوص الرجل**، حتى لا تكون هناك أدنى شبهة في أي لون من ألوان المبالغات»[(١)].

وعلى مدى ستين صفحة من كتابه (الإسلام بين التنوير والتزوير) من ص٩٧ إلى ص١٥٧، استطاع الدكتور عمارة أن يجلي خبايا وخزايا المشروع الفكري لسلامة موسى من خلال هذا التتبع المتسم بالهدوء والتروي.

رابعًا: حين نشر الدكتور محمد عابد الجابري كتابه (مدخل إلى القرآن الكريم: في التعريف بالقرآن)، ثم تلاه تفسيره للقرآن الذي جعل عنوانه (فهم القرآن الحكيم: التفسير الواضح حسب ترتيب النزول) أحدث هذا الكتابان ضجة كبرى في المجتمع المغربي، ما بين مؤيد ومعارض، وفي عام ٢٠٠٨م ناقش أحد الباحثين رسالة نال بها درجة العالمية الدكتوراه بقسم الفلسفة بكلية دار العلوم جامعة القاهرة، وكان عنوانها (مشروع النهضة بين الدكتور محمد عمارة والدكتور محمد عابد الجابري)، وأهدى الباحث منها نسخة للدكتور محمد عمارة، فاطلع من خلالها على الآراء التي تضمنتها الرسالة من فكر الدكتور الجابري، ثم دُعي فضيلته في يوم ١١ مارس ٢٠١٠م ليكون عضوًا مُحَكِّمًا لرسالة دكتوراه بقسم الفلسفة في كلية دار العلوم، جامعة القاهرة لباحث مغربي، وكان عنوانها (مناهج تجديد الفكر الإسلامي المعاصر في المغرب) فأتيحت له فرصة ثانية لمطالعة المزيد من أفكار الدكتور الجابري، لكن هذه الرسالة بما ورد فيها من مجازفات قد حفزته إلى

(١) الإسلام بين التنوير والتزوير، محمد عمارة، ص١٠٤.

الإحاطة الكاملة والشاملة بما كتبه الجابري عن القرآن الكريم، فقال: «ومنذ ذلك التاريخ، أخذت أبحث عن كتابه (مدخل إلى القرآن الكريم: في التعريف بالقرآن)، وهو سفر كبير قاربت صفحاته الخمسمائة صفحة، وعن تفسيره للقرآن، الذي أسماه (فهم القرآن الحكيم: التفسير الواضح حسب ترتيب النزول)، والذي صدر في ثلاثة أقسام تقرب صفحاتها من (١٣٠٠ صفحة) أخذت أبحث عن هذا العمل الفكري لأتبين على نحو مباشر حقيقة موقف الجابري من القرآن الكريم»[١].

وبعد البحث والمتابعة ظفر الدكتور عمارة ببغيته من معرض القاهرة الدولي للكتاب في يناير ٢٠١٠م، فما كان منه إلا أن عكف على دراسة هذا العمل الكبير [٢]، وكان من أهم المعالم المنهجية في دراسته له الكشف عن المتناقضات في كلام الجابري، ففي مواضع عديدة يقول الشيء ونقيضه، حتى يصرح د. عمارة بقوله: «يلاحظ القارىء لكتاب الجابري الكمَّ الهائل من التناقضات، التي تقطع بأن الرجل كان حاطب ليل في جمع مادة هذا الكتاب... وقد ألجأته السرعة في إخراج كتابه هذا إلى عدم التمحيص والتدقيق في المادة التي جمعها، وسيرى القارىء –في دراستنا هذه – نماذج عديدة وغريبة من هذه التناقضات [٣].

وكان من أبرز هذه التناقضات التي بها ضرب مشروع الجابري في مقتل، أن الجابري أقام فكرته على تقديم تفسير مرتكز على أن لكل آية سبب نزول، وإذ به بعد ذلك يؤكد على أن الآيات القرءانية التي لها سبب نزول قليلة جدًا، وبنص

(١) رد افتراءات الجابري على القرءان الكريم، محمد عمارة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١١م، ص ١٨.

(٢) رد افتراءات الجابري على القرءان الكريم، ص ١٩، ولاحظ هنا تاريخ الحصول على الكتاب، فقد كان الدكتور عمارة قد بلغ الثمانين من عمره، ومع ذلك لا زال يبحث وينقب، ويعكف على المشاريع الفكرية، وهكذا أصحاب الهمم العالية من العلماء.

(٣) المرجع نفسه، ص ٤٤.

عبارة د. عمارة « والغريب والعجيب أن الجابري– الذي أعاد ترتيب كل القرآن وفق أسباب النزول– يعود فينقض هو أساس " مشروعه البدعة" عندما يهيل التراب على ما ما جاء من روايات حول أسباب النزول للنادر من آيات القرآن الكريم»[١].

وهذا درس يجب أن يستوعبه الدعاة في رحلة التحدي والتصدي للأفكار الهدامة في جنبات المجتمع المسلم، فلابد أن يتسلح الداعية بسلاح الإحاطة والاستيعاب لفكر من يتصدى له مع الإدراك الجيد من أين يبدأ وإلام ينتهي؟

أما منهجية اجتزاء النصوص وبترها من سياقها، أو مطالعة جزء من النتاج العلمي للخصم، وإهمال الأجزاء الأخرى فهذا مسلك إن قبل من الآخرين فلا يمكن قبوله من الداعية لأنه في أقل الاحتمالات سيكون النقاش عديم الجدوى والفائدة.

(١) رد افتراءات الجابري على القرءان الكريم، محمد عمارة، ص ٤٦، ولمراجعة هذه النصوص المتناقضة، يراجع: فهم القرآن الحكيم التفسير الواضح حسب ترتيب النزول (القسم الأول)، محمد عابد الجابري، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ٢٠٠٨م، ص ١٥٦، ٣٣٣.

المطلب الثالث

استلهام مكونات التراث الإسلامي

إن المتتبع للمنهجية التي انتهجها د. عمارة في رده على شبهات العلمانيين من خلال تفكيكها وتحليل جزئياتها يجد أنه قد اتخذ من التراث الإسلامي بما حواه من كنوز عَزَّ نظيرها في تراث أي حضارة أخرى مرتكزًا متينًا ومستندًا قويمًا في إثبات كذب كثير من دعاوى مفكري العلمانية، ومما طبقه د. عمارة في هذا الشأن:

أولًا: ادعى المستشار محمد سعيد العشماوي أن سيدنا عثمان بن عفان ﷺ حين جمع المسلمين على حرف واحد من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم في العهد النبوي قد عطل العقلانية في التفكير لدى المسلم، وبعبارته: «إن جمع المسلمين على قراءة واحدة حفظ لآيات القرآن بلا شك.. غير أن هذا الجمع – وقد حفظ النص القرآني – ضيع الإنسان المسلم، بعد أن ذوت جذوته وخمدت شعلة الحضارة، فدخل في طور الجمود والتقليد وعدم الاجتهاد؛ لأنه جعل منه إنسان النص لا المعنى، إنسان النقل لا العقل، إنسان الحرف لا الروح»[(١)].

وإزاء هذا الادعاء العشماوي العاري عن الدليل، اتخذ د. عمارة من صفحات التراث الإسلامي منطلقًا لدفع ما أثاره العشماوي من شبهة معتمدًا على منهج المقارنة بين ما ادعاه العشماوي، وبين ما هو ثابت من صفحات التراث الإسلامي، ومؤكدًا أن الحضارة الإسلامية هي حضارة التعددية المنبثقة من النص القرآني المجموع على حرف واحد وفي أحضان هذه الحضارة التعددية نشأت وترعرت « تيارات اللفظ والمعنى، والعقل والنقل، والجمود والتقليد، والمعتزلة

(١) سقوط الغلو العلماني، محمد عمارة، ص٢٤، نقلا عن: حصاد العقل في اتجاهات المصير الإنساني، محمد سعيد العشماوي، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت– لبنان، ط٣، ٢٠٠٤م، ص٩٠.

والفلاسفة، والسلفية وأهل التأويل والحديث، وقد اجتمعوا جميعا على قراءة واحدة لقرآن واحد»[١].

وتساءل: «فهل منع هذا الاجتماع من تنوع واختلاف رؤى ومناهج ومذاهب هؤلاء القراء؟!»[٢].

وراح يعدد الأمثلة التي تثبت صحة هذه التعددية فالإمام أحمد بن حنبل كان ممثلًا لمنهج النصوصية، والإمام الماوردي كان ممثلًا لمنهج العقلانية، وكذا الإمام أبي حامد الغزالي، والإمام ابن رشد كان ممثلًا لتيار دفع وهم التعارض بين العقل والنقل، وسار على دربه ابن تيمية، وإزاء كل إمام من هؤلاء الأئمة يورد النصوص الواردة على لسانه والمؤكدة لتوجهه الفكري الذي اتخذ منه منهج حياة لمسيرته العلمية [٣].

وعاب فضيلته على العشماوي ضعف صلته بمضامين التراث الإسلامي، فقال: «ولو أن الرجل قد برىء من خبث الضمائر، وقرأ كتابًا واحدًا مثل (الفهرست) لابن النديم (٤٣٨هـ- ١٠٤٧م) فضلا عما كتبه المسلمون وغيرهم في تصنيف العلوم الإسلامية لما قال هذا الذي طعن به الأمة وتراثها، عندما صور وحدة النص القرآني كجناية على الإنسان المسلم وعقلانيته واجتهاده، ومن ثمَّ على تراثه في الفكر والعلوم»[٤].

ثانياً: ادعى المستشار العشماوي أن كل آيات القرآن الكريم لها أسباب النزول وهي مختصة بها، وهذه الأسباب قد زالت بزوال أحداثها، وبالتالي فإن علة تشريع الأحكام المتمثلة في هذه الأسباب قد انقضت وزالت بانقضاء الأسباب،

(١) سقوط الغلو العلماني، محمد عمارة، ص٢٤.

(٢) المرجع السابق، ص٢٤.

(٣) المرجع السابق، ص٢٤.

(٤) المرجع السابق، ص٢٨.

وبعبارته «فأحكام التشريع في القرآن ليست مطلقة، ولم تكن مجرد تشريع مطلق [١].. يعني أن كل آية تتعلق بحادثة بذاتها، فهي مخصصة بسبب التنزيل، وليست مطلقة»[٢].

وإزاء هذه الشبهة انطلق د. عمارة مفككاً عناصرها، ومحللا لألفاظها وعباراتها، وصولا إلى الهدف المبتغى منها من خلال المقارنة بين دعوى العشماوي وبين الحقائق الثابتة في علوم القرآن، فيقول: «فإذا كان التاريخ قد طوى صفحات الوقائع والحوادث التي سببت نزول الأحكام في الآيات، فإن طي صفحات المسَبَّبات – الأحكام – حتمي لارتباطه بطي صفحة الأسباب في النزول... فلم يعد القرآن مصدرًا للأحكام التشريعية، بعد زوالها بزوال الأسباب التي تعلقت واختصت بها»[٣].

وهو ما يعني أن العشماوي قد أقدم على نفي القاعدة التي أقرها واعتمدها علماء علوم القرآن بأن (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)، وهنا يسوق د. عمارة خمسة وثلاثين آية قرآنية ذكر لها العلماء المتخصصون في علم أسباب النزول أسباب نزول ومع ذلك فإن كل آية منها لم تختص بسبب نزولها بل صارت حكما عاما لعموم الأمة [٤].

وحينما ادعى المستشار العشماوي – بناء على نفيه لقاعدة أن «العبرة

(١) سقوط الغلو العلماني، محمد عمارة، ص٢٣٤، نقلاً عن: معالم الإسلام، محمد سعيد العشماوي، ص ١٢٠.

(٢) سقوط الغلو العلماني، محمد عمارة، ص٢٣٤، نقلاً عن: الإسلام السياسي، محمد سعيد العشماوي، ص٤٤.

(٣) سقوط الغلو العلماني، محمد عمارة، ص٢٣٥.

(٤) انظر: سقوط الغلو العلماني، محمد عمارة، ص٢٣٦-٢٤٦، وقد اعتمد فيها على الإمام السيوطي، والإمام الواحدي، من خلال كتابيهما (أسباب النزول).

بعموم الفظ لا بخصوص السبب» – أن منهج علماء الأمة، في أن «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» يعني أنهم يفسرون آيات القرآن «بانتزاع الآية من السياق، وفصلها عن أسباب التنزيل، واستعمالها تبعا للتركيب اللغوي وحده، وفقا للتكوين اللفظي دون سواه»[(١)]؛ ليصل إلى القول بأن هذا الأمر «قد حدث في فترات الظلام الحضاري، والانحطاط العقلي.. فتغير بسببه تفسير القرآن تماماً»[(٢)].

هنا يقلب د. عمارة صفحات التراث الإسلامي ضاربا في أمهات كتبه ليسوق للعشماوي نماذج من اثني عشر مفسراً من مفسري القرآن الكريم اختلفت مناهجهم في التفسير «لكنهم اجتمعوا جميعاً على الجمع بين «عموم اللفظ» و«خصوص السبب»[(٣)].

ويسوق دليلاً آخر من التراث الإسلامي من خلال تتبع نشأة علمي التفسير وأسباب النزول وأيهما كان أسبق من الآخر، حيث «إن علم التفسير، قد نضج – كعلم إسلامي – قبل أن يبدأ التأليف في أسباب النزول، وأول تأليف في هذا الفن كان في القرن الثالث الهجري، على يد علي بن المديني (ت ٢٣٤هـ)»[(٤)].

---

(١) سقوط الغلو العلماني، محمد عمارة، ص ٢٤٧، نقلاً عن: معالم الإسلام، محمد سعيد العشماوي، ص ١٦٥.

(٢) سقوط الغلو العلماني، محمد عمارة، ص٢٤٨، نقلاً عن: معالم الإسلام، العشماوي، ص ٦٤، ١٨٧.

(٣) سقوط الغلو العلماني، محمد عمارة، ص٢٤٨، ٢٤٩. والمفسرون هم: يحيى بن سلام (ت٢٠٠هـ)، والطبري (ت٣١٠هـ)، والزمخشري (ت٥٣٨هـ)، وابن عطية (ت٥٤٢هـ)، والرازي (ت٦٠٦هـ) والبيضاوي (ت٦٨٥هـ) وابن عرفة (ت٨٠٣هـ) وأبو السعود (ت١٢٦٨هـ) و الآلوسي (ت١٢٧٠هـ)، والأفغاني (ت١٣١٤هـ)، ومحمد عبده (ت١٣٢٣هـ)، ومحمد رشيد رضا (ت١٣٥٤هـ).

(٤) سقوط الغلو العلماني، محمد عمارة، ص٢٤٩، نقلاً عن: مقدمة أسباب النزول للواحدي، السيد أحمد صقر، ص٢٣، وانظر: النص الإسلامي بين التاريخية والاجتهاد والجمود، محمد عمارة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٧م، ص ٤-٧.

وحينما يدعي المستشار العشماوي أن «كل آيات القرآن نزلت على الأسباب – أي لأسباب تقتضيها – سواء تضمنت حكمًا شرعيًا أم قاعدة أصولية أم نظمًا أخلاقية»(١).

يتساءل د. عمارة: هل هذا صحيح؟ هل لكل آيات القرآن أسباب نزول، ارتبطت بها وطلبت لأجلها، واقتضتها؟ وبغيرها لا يمكن تفسيرها؟

ثم يسوق من معين التراث الإسلامي ما يثبت الخلل في دعوى المستشار العشماوي، من خلال عدة إحصائيات للروايات التي عنيت بأسباب النزول، والتي اعتمد فيها على مؤلفات أسباب النزول، وخلص إلى أن «المدقق منها مثل الواحدي قد روى أسباب نزول لـ ٤٧٢ آية، من مجموع آيات القرآن، البالغة ٦٢٣٦ آية، أي ما نسبته ٧.٥% من آيات القرآن الكريم، بينما بلغ المتساهل في الجمع " السيوطي" بعدد الآيات التي جمع لها أسباب نزول إلى ٨٨٨ آية أي ما نسبته ١٤% من آيات القرآن الكريم، فأين هي أسانيد افتراء العشماوي بأن لكل آيات القرآن أسباب نزول؟»(٢).

ثالثًا: ادعى الدكتور محمد عابد الجابري اختلاف الفرق الإسلامية حول عصمة الأنبياء والمرسلين، وأن أهل السنة والمعتزلة قد أجمعوا على جواز المعاصي سواء أكانت صغائر أم كبائر في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وجاء نص عبارته: «فأهل السنة – كالمعتزلة – يتعاملون مع مفهوم النبي بوصفه يدل على واحد من البشر اختاره الله لهذه المهمة وبالتالي فهو ليس معصومًا، عصمة كلية لا عن النسيان ولا عن السهو والخطأ ولا عن المعاصي، الكبائر منها والصغائر، وإن كانوا يصنعون لذلك حدودًا وقيودًا تمنع من المس بعلو شأن

(١) سقوط الغلو العلماني، محمد عمارة، ص٢٥٤، نقلا عن: جوهر الإسلام، العشماوي، ص١٤٨.

(٢) سقوط الغلو العلماني، محمد عمارة، ص٢٥٥، وزاد د. عمارة فقدم لقرائه جدولا يحوي في صفوفه: السورة، وعدد آياتها، وما روى فيه السيوطي سبب نزول، وما روى فيه الواحدي سبب نزول.

النبي وطهارة سلوكه وأمانته، خصوصًا في مرحلة التبليغ عن الله، بحيث ينفون عنه النسيان والسهو والخطأ في هذا المجال، وذلك إبعادًا لشبهة النقص والتغيير عن القرآن»[١].

فواجه د. عمارة هذه الدعوى بتقديم الأدلة العقلية على ثبوت العصمة للأنبياء والرسل، ثم ثنَّى بتقديم ما يثبت عكس ما ادعاه الجابري من زعم اختلاف الفرق الإسلامية حول عصمة الرسل، من خلال أقوال ونصوص أئمة هذه الفرق الإسلامية قديمًا وحديثًا، فنقل عن القاضي عياض صاحب (الشفا بتعريف حقوق المصطفى) قوله: «أجمع المسلمون على عصمة الأنبياء من الفواحش والكبائر والموبقات.. وأما في الصغائر، والصواب تنزيه النبوة عن قليله وكثيره، وسهوه وعمده؛ إذ عمدة النبوة البلاغ والإعلام والتبيين وتصديق ما جاء به النبي ﷺ وتجويز شيء من هذا قادح في ذلك مشكك فيه مناقض للمعجزة»[٢].

كما استشهد بقول الإمام ابن حزم – رحمه الله –: «وَذَهَب جَمِيع أهل الْإِسْلَام من أهل السّنة والمعتزلة والنجارية والخوارج والشيعة إِلَى أَنه لَا يجوز الْبَتَّةَ أَن يَقع من نَبِي أصلا مَعْصِيّة بعمد لَا صَغِيرَة وَلَا كَبِيرَة.. وهذا القول الذي ندين الله تعالى به»[٣].

كما استشهد بقول الإمام القرطبي (ت٦٧١هـ) الذي نعته بفقيه المفسرين في

(١) رد افتراءات الجابري على القرآن الكريم، محمد عمارة، ص ٩٤، نقلا عن: في التعريف بالقرآن، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م، ص ١١٥.

(٢) رد افتراءات الجابري على القرآن الكريم، محمد عمارة، ص ٩٤، نقلا عن: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض بن موسى اليحصبي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م، (٢/ ١٤٤، ١٣٦)

(٣) رد افتراءات الجابري على القرآن الكريم، محمد عمارة، ص ٩٤، نقلا عن: الفصل في الملل والأهواء والنحل، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، مكتبة صبيح، (٢٩/٤).

تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[1]، «دليل على نبوته؛ لأن الله ﷻ أخبر أنه معصوم، ومن ضَمِنَ سبحانه له العصمة فلا يجوز أن يكون قد ترك شيئًا مما أمره الله به»[2].

وانتقل بالاستشهاد من أقوال أهل السنة والجماعة إلى أقوال المعتزلة، بما جاء على لسان شيخهم القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني (ت ٤١٥هـ) في كتابه: (المغني في أبواب التوحيد والعدل)[3].

رابعًا: ادعى الدكتور محمد عابد الجابري «دخول الغنيمة كجزء أساسي في الكيان الإسلامي لجماعة المسلمين»، فرد عليه الدكتور عمارة باستدعاء تراث العقلانية التي نهض بها المعتزلة في زمانهم، ولا زالت ردودهم يدوي صداها في الآفاق فيستدعيها المفكر الإسلامي كلما لزم الأمر ووجدت المناسبة، ويجد بغيته في تراث فيلسوف المعتزلة (القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني) من خلال كتابه (تثبيت دلائل النبوة)[4].

ومن خلال ما تقدم ذكره يمكن القول: أن الداعية الذي يخوض غمار المناقشة والحوار مع المخالفين ومنهم أصحاب الفكر العلماني هو في أمس الحاجة للتسلح بأداة الغوص في كنوز التراث الإسلامي، واستخراج ما يرسخ قدمه

(١) المائدة: ٦٧.

(٢) رد افتراءات الجابري على القرآن الكريم، محمد عمارة، ص ١١٠، نقلا عن: الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م (٢٤٣/٦)

(٣) يراجع: رد افتراءات الجابري على القرآن الكريم، محمد عمارة، ص١١-١١٤.

(٤) انظر: رد افتراءات الجابري على القرآن الكريم، محمد عمارة، ص ١٣٨،١٣٩، نقلا عن: تثبيت دلائل النبوة، القاضي عبد الجبار، تحقيق: عبد الكريم عثمان، الدار العربية، بيروت، ١٩٦٦م، (١١/١-١٢).

في الرد على الدعاوى التي يقدمها الخصم، خاصة حينما تخالف دعواه ما هو مبثوث في ثنايا التراث الإسلامي، لكنه يحتمي خلف جهل خصمه بالتراث الإسلامي أو عدم قدرته على الوقوف على محتوياته، فينطلق الداعية بخطى وئيدة صوب التراث الإسلامي متسلحًا بمنهج المقارنة بين ما يدعيه خصمه، وبين ما هو ثابت في التراث الإسلامي من أدلة وحقائق تثبت بطلان دعاواه التي يظن أنها قوية وراسخة، ولن تكتمل هذه المهارة للداعية إلا إذا كان ملمًا بخريطة التراث الإسلامي، مفرقًا بين غثِّه وسمينه، ومنميًا لمهارة البحث عن المعلومة في مظانها الصحيح [١].

(١) مما يعين الداعية على تنمية هذه المهارة وتطويرها دراسة المراجع المتخصصة في هذا المجال، وأذكر منها: التراث الإسلامي بين التقدير والتقديس، بكر زكي عوض، سلسلة قضايا إسلامية الصادرة عن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، العدد (١٢٥)، ١٤٢٦هـ –٢٠٠٥م، و مدخل إلى التراث العربي الإسلامي، خالد فهمي، وأحمد محمود، مركز تراث للبحوث والدراسات، القاهرة، ط١، ٢٠١٤م، وقد أجاد المؤلف الأول في وضع خريطة متكاملة للتراث الإسلامية بمطالعتها يوفر الداعية على نفسه وقتًا وجهدًا كبيرين.

المبحث الثالث
تفنيد دعوى علمانية أعلام الإحياء الإسلامي

حاول التوجه العلماني في العالم العربي أن يدلس ويُعمِّيَ على عموم الجماهير انتماءه الفكري والثقافي والحضاري لدوائر الفكر الغربي التغريبي ورواده من العلماء والمفكرين الغربيين المؤسسين للعلمانية في بلادهم، وكان من ضمن وسائل هذا التمويه والخداع، تصدير صورة ذهنية مفادها وفحواها اتخاذ شخصيات عامة – شُهِد لها بالتأثير على الجماهير والسيطرة على عقولهم وقلوبهم – مُثُلًا عليا لتكون في المقدمة، في محاولة يائسة وبائسة لقلب الحقائق.

فنسبوا لرفاعة الطهطاوي، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وغيرهم، من المقولات ما يلقي في روع المتلقي كونهم روادًا من رواد الفكر العماني والمنظرين له.

وقد وقف د. عمارة على هذا الثغر الذي لم يلتفت لحمايته إلا القليل من مفكري الإسلام المعاصرين، فدافع ونافح عن هذه الثلة المباركة التي أراد العلمانيون اقتناصها وإضافتها ضمن قوائمهم، بإبراز الحقائق وتقديم الأدلة والبراهين على انتفاء هذه التهمة عنهم.

وسوف أقدم هنا ما قام به فضيلته حيال هذا الإجراء العلماني المدلس:

١. رفاعة الطهطاوي: حيث ألصق به لويس عوض ومن سلك دربه تهمة انتصاره للمذهب الإنساني، وهم يقصدون به المذهب العلماني استنادًا إلى دعوته للإفادة من معالم التقدم والتحضر في الحضارة الغربية من خلال ما طالعه من تقدم الأمة الفرنسية.

وهنا يتسم د. عمارة بالموضوعية، فيقر بأن رفاعة الطهطاوي دعا بالفعل لذلك «دون أن يتخلى عن الإطار المرجعي المتميز للحضارة العربية الإسلامية، أو يتبنى الإطار المرجعي – المتميز هو الآخر – للحضارة الغربية العلمانية»[١].

ويزيد فضيلته الأمور جلاء وتأكيدًا بأن رفاعة الطهطاوي لم يكن في يوم

(١) نهضتنا الحديثة بين العلمانية والإسلام، ص١٤١.

داعية من دعاة العلمانية، بل كان رافضًا لها منددًا بخطورتها، فيقول: «ولقد خيل إليَّ في مرحلة من مراحل دراساتي عن الطهطاوي أن الرجل قد اتخذ موقف التردد حيال علمانية الحضارة الغربية، لكن التقدم في وعي نصوص الطهطاوي وفقه كتاباته قد بلغ بي درجة اليقين برفض الرجل للعلمانية الغربية رفضًا واعيًا بحقيقتها المخالفة للإطار المرجعي لحضارته العربية الإسلامية»(١).

وكان مما استدل به د. عمارة على رفض الطهطاوي للعلمانية تمييزه بين عدة أمور، يتضح من خلالها أن الطهطاوي كان ابنا بارًا للفكرة الإسلامية ولم يمل به الهوى لتبني الفكرة العلمانية التغريبية، ومن مظاهر هذا التمييز:

أ. التمييز بين الفلسفة الوضعية، التي أثمرتها فلسفة التنوير القائمة على اعتماد العقل والتجريب كسبل للمعرفة منكرة الوحي والشرع، وبين علوم التمدن المدني – الطبيعي– التجريبية، فقبل الثانية؛ لأنها مشترك إنساني عام، ورفض الأولى (٢).

ب. رفضه للعلمانية التي جعلت العقل والدنيا مرجعية للقانون، دون الشرع الإلهي، فدعا إلى «التتلمذ على أوروبا في العلوم الطبيعية والمدنية... مع إحياء وتجديد وتقنين الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامي؛ ليواكب القانون الإسلامي مستجدات الوقت والحال»(٣).

ج. رفضه للعلمانية التي «همشت الدين فعزلته عن شئون الحياة وميادين العمران، ودعا إلى مرجعية الشرع والعقل والتجريب، بدلًا من مرجعية العقل المجرد والنواميس الكونية»(٤).

---

(١) المرجع السابق، ص١٤١.

(٢) انظر: الإسلام بين التنوير والتزوير، محمد عمارة، ص ٢٢٩، ٢٣٠.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٣٠.

(٤) الإسلام بين التنوير والتزوير، محمد عمارة، ص٢٣٠، وهو في كل هذه المظاهر الدالة على الرفض ينقل النصوص المبرهنة على صحة حكمه بأن الطهطاوي لم يكن يوما ما من دعاة العلمانية ولا من أربابها.

ثم يوضح الأسباب التي دعت الطهطاوي لهذا الرفض، والتي تمثلت في:

أ. وعيه الكامل والعميق بأن «العلمانية تعني: الاعتماد على العقل دون النقل والوحي، وإرجاع كل المسببات إلى النواميس الطبيعية وحدها، دون القوة الإلهية الخالقة والمدبرة للكون.. واعتماد العقل وحده مصدرًا للقوانين، دونما نظر إلى الشريعة الإلهية ومقاصدها وأحكامها، وأن هذه العلمانية لا تقيم للدين وزنًا فيما يتعلق بسياسة الدولة وتنظيم المجتمع وتنمية العمران»(١).

ب. فقهه العميق بجوانب تميز الحضارة الإسلامية العربية عن الحضارة الغربية حيث ناقضت الأولى الثانية في الإطار المرجعي الذي «يجمع ما بين العقل والنقل، والطبيعة والشريعة، والدنيا والدين»(٢).

ويؤكد هذا بما ورد على لسان الطهطاوي بقوله: «فالتكاليف الشرعية والسياسية التي عليها مدار نظام العالم مؤسسة على التكاليف العقلية الصحيحة الخالية عن الموانع والشبهات، لأن الشريعة والسياسة مبنيتان على الحكمة المعقولة لنا أو التعبدية التي يعلم حكمتها المولى ﷻ، وإنما ليس لنا أن نعتمد على ما يحسنه العقل أو يقبحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه»(٣).

ومما أكد عليه د. عمارة في شأن تقبل الطهطاوي للفكرة العلمانية من عدمه أنه رفضه الكامل باستبدال القوانين الوضعية بالشريعة الإسلامية، ففي الشريعة ما يكفي من ضمانات لقيام حياة سليمة مستقيمة لا تفريط فيها ولا إفراط، فقال: «رفض أن تكون القوانين الوضعية بديلًا عن المرجعية الإسلامية لنهضتنا

(١) نهضتنا الحديثة بين العلمانية والإسلام، ص١٤١، ١٤٢.

(٢) المرجع السابق، ص١٣٩، ١٤٠. نقلًا عن: مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس، الجبرتي، ص ٣، ٤، ٥، ٩، ١٢، ١٠.

(٣) الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي، دراسة وتحقيق: محمد عمارة، طبعة مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠١٠، (٢/ ٥١٠).

ومدنيتنا، وتصدى للدفاع عن فقه الشريعة الإسلامية وقوانينها عندما رأى بواكير تسلل هذه القوانين الوضعية إلى القضاء التجاري في الموانىء المصرية – في التجارة مع الأجانب – فكتب مزكيًا البديل القانوني الإسلامي، وقال: «إن المعاملات الفقهية لو انتظمت وجرى عليها العمل لما اخلت بالحقوق، بتوفيقها على الوقت والحالة.. ومن أمعن النظر في كتب الفقه الإسلامية ظهر له أنها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية.. إن بحر الشريعة الغراء، على تفرع مشارعه، لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقي والري، ولم تخرج الأحكام السياسية عن المذاهب الشرعية.. لأنها أصل، وجميع مذاهب السياسات عنها بمنزلة الفرع»(١).

وبعد رصد كل هذه المظاهر الدالة على رفض الطهطاوي لكل ما يمت للعلمانية بصلة، يقول د. عمارة: «هذا هو الطهطاوي المجدد الإسلامي الذي يحشره تلاميذ التنوير الغربي العلماني في زمرة سلامة موسى وشبلي شميل وفرح أنطون وإسماعيل أدهم، وأمثالهم من دعاة العلمانية، ونزع الإسلامية عن الدولة والقانون والمجتمع والعمران»(٢).

٢. الإمام محمد عبده: إذا كان تيار التنوير التغريبي قد حاول اقتناص الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي ليكون أحد رواد التنوير المستورد من الغرب، ومع كون المحاولة قد باءت بالفشل الذريع، فقد نهجوا ذات الأمر مع الإمام محمد عبده، وقد يكون الإمام محمد عبده بالنسبة لهم أهم وأجدى، نظرًا لتأثيره الأوسع والأعمق في طلاب الأزهر، كما أنه رقى إلى سدة الفتيا فصار مفتيا للديار المصرية فإذا استطاع التوجه العلماني إثبات تبنيه لفكرة التنوير الغربي، فقد

(١) الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي، دراسة وتحقيق: محمد عمارة، طبعة مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠١٠، (١/ ١٥١، ١٥٢).

(٢) الإسلام بين التنوير والتزوير، محمد عمارة، ص٢٣٧.

قطع شوطًا من التأثير في المجتمع، وسدَّد رمية أصابت مرماها!!!

ومن هنا زادت عناية د. عمارة بتبرئة ساحة الإمام محمد عبده مما نسب إليه من تبني الفكر التنويري بمعناه التغريبي، وقدم الأدلة الدامغة على كون الإمام – رحمه الله – من الرافضين للفكر العلماني التغريبي، بل من المناوئين له الفاضحين لألاعيبه ومخططاته.

فإذا كان الفكر العلماني قائم على تبني النموذج الغربي وقطع صلتنا نحن المسلمين بتراثنا، فقد نقد محمد عبده هذا النموذج ورفض ماديته، فقال: «إن هذه المدنية هي مدنية الملك والسلطان، مدنية الذهب والفضة، مدنية الفخفخة والبهرج، مدنية الختل والنفاق، وحاكمها الأعلى هو «الجنيه» عند قوم، والليرا عند قوم آخرين، ولا دخل للإنجيل في شيء من ذلك»[1].

وإذا كانت العلمانية تعلن أن من مبادئها فصل الدين عن السلطة والدولة ونظام الملك والاجتماع، فإن محمد عبده يبادر بالتأكيد على أن الإسلام عندما يرفض السلطة الدينية، فإنه يرفض اعتزاله للسلطة والدولة لأنه ليس نصرانية تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله، وإنما هو دين وشرع، أي دين ودولة وسياسة وعمران، وبعبارة الأستاذ الإمام، فإن «الإسلام دين وشرع، فهو قد وضع حدودا، ورسم حقوقًا.. ولا تكتمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وجدت قوة لإقامة الحدود وتنفيذ حكم القاضي بالحق، وصون نظام الجماعة، وتلك القوة لا يجوز أن تكون فوضى في عدد كثير، فلابد أن تكون في واحد، وهو السلطان أو الخليفة.. والإسلام لم يدع ما لقيصر لقيصر، بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ما له، ويأخذ على يده في عمله.. فكان الإسلام كمالًا للشخص، وألفة في البيت،

(١) الإسلام بين التنوير والتزوير، محمد عمارة، ص ٢٥٦، نقلاً عن: الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، دراسة وتحقيق: محمد عمارة، (٢٠٥/٣).

ونظامًا للملك امتازت به الأمم التي دخلت فيه عن سواها ممن لم يدخل فيه [١].

وظل فضيلته يقدم الدليل تلو الدليل على نقض دعوى انتماء محمد عبده للفكر التنويري بمفهومه الغربي، وكشف عن عملية التزوير التي قام دعاة العلمانية بنشر كتاب الإمام المعنون بـ«الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية»، وما قاموا به من حذف لكلمة النصرانية في عنوان الكتاب، وحذف لمقارنته –رحمه الله – بين أصول النصرانية وبين أصول الإسلام، وإضافة مباحث ومقالات ليست من أصل الكتاب ولا من كتابات الإمام [٢].

وهكذا أعاد د. عمارة الأمور إلى نصابها وأثبت بالدليل القاطع توجه الإمام محمد عبده صوب الإحياء والتجديد والتنوير وفق ما فهمه من تعاليم الإسلام السامية التي نذر حياته كلها للدعوة إليه، وضرورة ترسيخه في جنبات المجتمع المسلم.

٣. الشيخ عبد الرحمن الكواكبي: كان الكواكبي أحد رواد الإصلاح والإحياء الإسلامي في العصر الحديث، وكان من الدعاة لفكرة الجامعة الإسلامية، ومن المناوئين للجمود والتخلف الذي أصاب الخلافة العثمانية، ونادى بضرورة تجددها وبعث الروح فيها من جديد مع تميز الأمة العربية بالريادة والقيادة في العالم الإسلامي، وبالرغم من هذا فقد حاول الحزب السوري القومي المعروف بخلفيته العلمانية التغربية اتخاذ الشيخ الكواكبي أيقونة من أيقونات علمنة المجتمع الإسلامي بدعوى مناداة الرجل بعلمنة الإسلام وفصل الدين عند الدولة، وفي هذا الصدد يقول د. عمارة: «حاول الحزب السوري

(١) الإسلام بين التنوير والتزوير، محمد عمارة، ص٢٥٦، نقلا عن: الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، دراسة وتحقيق: محمد عمارة، (٣/ ٢٨٧، ٢٢٥، ٢٢٦).

(٢) تم نشر الكتاب بهذا التزوير المفضوح في سلسلة التنوير والمواجهة، طبعة الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م، وللمزيد من التفصيل يراجع: الإسلام بين التنوير والتزوير، محمد عمارة، ص٢٦٤–٢٦٧.

القومي، وباحثه المثابر الأستاذ «جان داية» ومن قبله زعيم الحزب «أنطون سعادة» (١٩٠٤- ١٩٤٩م) حاولوا سرقة الكواكبي من موقعه المرموق في صفوف زعماء الإصلاح الإسلامي، وتقديمه في صورة العلماني، الذي يدعو أمته إلى سلوك طريق العلمانية الغربية للتقدم والنهوض»[١].

وقد جاءت هذه المحاولة من الحزب السوري القومي في صورة سعي الأستاذ «جان داية» عضو الحزب السوري القومي إلى العكوف على فكر الكواكبي جمعًا وتنقيبًا وبحثًا عن تراثه، ليس من باب الحفاظ على تراث عالم مسلم كاد تراثه أن يندثر ويختفي، بل من باب إثبات علمانيته، ودعوته إلى تطبيقها في ربوع المجتمع الإسلامي، مع إثبات ريادته في الدعوة لفصل الدين الإسلامي عن الدولة، وقد كان نتاج هذا الجهد إصدار كتابه الذي جعل عنوانه (الإمام الكواكبي.. فصل الدين عن الدولة)، والذي نشرته دار سوراقيا للنشر بالمملكة المتحدة سنة ١٩٨٨م [٢]، وعبر صفحات هذا الكتاب قدَّم الأدلة التي رآها حججًا منطقية على صدق دعواه، فقال: «إن الكواكبي هو رائد القائلين بمبدأ فصل الدين

(١) الشيخ عبد الرحمن الكواكبي هل كان علمانياً، محمد عمارة، نهضة مصر للطبع والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٦م، ص٥.

(٢) من الجدير بالذكر أن الكاتب الأردني (سليمان موسى) قد سبق (جان داية) في الادعاء بتبني الكواكبي لفكرة فصل الدين عن الدولة، حيث يقول: «نشر الكواكبي (١٨٤٩-١٩٠٣م) بمصر كتابين هما: «طبائع الاستبداد» و«أم القرى» دعا فيهما إلى أن يتولى العرب إدارة بلادهم إلى نزع الخلافة من الأتراك وإعادتها إلى العرب، مشترطًا أن يكون الخليفة قرشيًا وأن تشمل سلطته الروحية كافة المسلمين على أن يقتصر سلطانه الزمني على الحجاز، وهذه أول مرة يتقدم فيها مفكر عربي مسلم بمشروع إنشاء دولة وطنية تفصل فيها السلطة عن الدين بينما كان المفكرون المسلمون قبل ذلك يدعون إلى إبقاء السلطة التنفيذية والزعامة الدينية مترابطتين ملتصقتين في شخص الخليفة – السلطان، دون اعتبار للتباين بين الأجناس المختلفة».

انظر: الحركة العربية المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة (١٩٠٨-١٩٢٤م)، سليمان موسى، دار النهار للنشر، بيروت – لبنان، ط٣، ١٩٨٦م، ص ٢٣.

عن الدولة على صعيد الأئمة والكتاب المسلمين فلم يبرز أي كاتب مسلم قبله قال بضرورة الفصل بين السلطتين الدينية والسياسية، مما يرجح الاستنتاج بأن الكواكبي هو الذي شق هذه الطريق الطويلة الشاقة»[١].

وإزاء هذا الادعاء تتبع د. عمارة ما جمعه (جان داية) من وثائق ومقالات ومؤلفات الكواكبي وخلص إلى أنه قدم للقراء سبعة أدلة على علمنة الكواكبي، ثم كرَّ عليها واحدًا إثر الآخر ناقضًا إياها ومقوضًا دعائم هذه الأدلة التي استند عليها الرجل الممثل للحزب السوري القومي، من خلال إثبات الأقوال الواردة على لسان الكواكبي والمثبتة لكون الرجل من المناهضين للفكرة العلمانية من الأساس [٢].

(١) الشيخ عبد الرحمن الكواكبي هل كان علمانياً، محمد عمارة، ص ١٣، نقلاً عن: الإمام الكواكبي فصل الدين عن الدولة، جان داية، دار سوراقيا للنشر بالمملكة المتحدة، ١٩٨٨م، ص١٧، ١٨، ٢٦.

(٢) انظر: الشيخ عبد الرحمن الكواكبي هل كان علمانياً، محمد عمارة، ص ١٥– ٣٠. ومما يجب التنويه عليه أن د. عمارة كان قد أصدر دراسة مستوعبة عن الكواكبي بعنوان (عبد الرحمن الكواكبي شهيد الحرية ومجدد الإسلام)، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ١٤٠٨هـ– ١٩٨٨م، حوت (٢٢٩) صفحة.

المبحث الرابع

رصد التحولات الفكرية من العلمانية إلى الفكرة الإسلامية

شهدت ساحة الفكر العلماني بزوغ نجم عدد من المنظرين له الناشرين لرؤاه والحاملين لواء ترسيخه في أذهان المجتمعات الإسلامية، وكان هؤلاء ممن يشار لهم بالبنان في عالم الفكر والثقافة، واعتبروا من الآباء الروحيين المنظرين والمنظمين للفكرة العلمانية، ثم ما لبث هؤلاء أن أعلنوا عن تحول أفكارهم وتغيير دفة أقلامهم نحو الفكر الإسلامي، والدفاع عن حياض الإسلام والذود عنه.

وحاول التيار العلماني جاهدا أن يهيل التراب على هذه التحولات الفكرية وأن تطوى صفحتها في طي النسيان وتتجاهلها الأجيال التي عايشتها فضلًا عن الأجيال اللاحقة بعد ذلك.

لكن د. عمارة أفسد على هذا التيار خطته، وفضح مؤامراته، فقام برصد هذه التحولات الفكرية وتتبع الخط البياني لأصحابها؛ ليحقق بذلك ثلاثة أهداف:

الأول: إنصاف هذه الشخصيات التي اتُّخِذت رموزًا من قِبَل التيار العلماني بإبراز المحطات الفكرية في حياتها، ومرورها بعدد من التجارب التي أصقلتها حتى استوت على سوقها.

الثاني: أخذ هذه الشخصيات اللامعة ذات الثقل الفكري والثقافي من أحضان الفكر العلماني وضمها إلى أحضان الفكر الإسلامي المستنير بنور الوحي الإلهي.

الثالث: إثبات هشاشة الفكر العلماني وخفةِ وزنه، فالفكرة الصواب تترسخ في ذهن أصحابها، ولا يتم التحول عنها بسهولة.

وكان من أصحاب هذه التحولات الفكرية التي رصدها د. عمارة بقصد تفكيك الفكر العلماني:

١- الشيخ علي عبد الرازق [١]: لقد أصدر الشيخ علي في شهر رمضان ١٣٤٣هـ - إبريل ١٩٢٥م كتابه (الإسلام وأصول الحكم) الذي رأى فيه أن الإسلام رسالة روحانية لا تمت إلى واقع الناس بصلة، فقال: «ظواهر القرآن المجيد تؤيد القول بأن النبي لم يكن له شأن في الملك السياسي، وآياته متضافرة على أن عمله السماوي لم يتجاوز حدود البلاغ المجرد من كل معاني السلطان.. لم يكن إلا رسولا قد خلت من قبله الرسل.. ولم يكن من عمله شيء غير إبلاغ رسالة الله تعالى إلى الناس.. وليس عليه أن يأخذ الناس بما جاءهم به، ولا أن يحملهم عليه.. كانت ولاية محمد على المؤمنين ولاية الرسالة غير مشوبة بشيء من الحكم. هيهات هيهات، لم يكن ثمة حكومة، ولا دولة، ولا شيء من نزعات السياسة ولا أغراض الملوك والأمراء»[٢].

وعلى إثر صدور الكتاب صدرت إدانة هيئة كبار العلماء لآراء الشيخ علي في (الخلافة الإسلامية) وفي (روحانية الإسلام)، وانفصام علاقته بالحكم والدولة والسياسة، في هيئة حكم تأديبي بإخراجه من زمرة العلماء بتاريخ ٢٢ محرم سنة ١٣٤٤هـ- ١٢ أغسطس سنة ١٩٢٥م.

وفي اليوم التالي للإدانة نشرت جريدة (البورص إجيبشن) حديثًا مع الشيخ

(١) علي عبد الرازق: ولد علي عبد الرازق سنة ١٣٠٥هـ- ١٨٨٨م، درس في الأزهر، وبجانب دراسته بالأزهر درس بالجامعة المصرية القديمة، وحصل على شهادة العالمية من الازهر سنة ١٩١٢م، ثم سافر إلى انجلترا وعاد بعد عامين، ولي القضاء الشرعي، وانتخب عضوا بمجلس النواب والشيوخ، وعين وزيرا للأوقاف، كما اختير عضوا بمجمع اللغة العربية، من مؤلفاته: (الإسلام وأصول الحكم)، و (الإجماع في الشريعة الإسلامية)، توفي سنة ١٣٨٦هـ- ١٩٦٧م. انظر: طه حسين يتحدث عن أعلام عصره، محمد الدسوقي، دار المعارف، سلسلة (اقرأ) عدد (٥٧٨)، ١٩٩٨م، ص ٦٩.

(٢) الإسلام بين التنوير والتزوير، محمد عمارة، ص٤٢-٤٣، نقلا عن: الإسلام وأصول الحكم، علي عبد الرازق، ص ٦٤- ٨٠.

علي يتحدى فيه هيئة كبار العلماء وحكمها.. ويعلن فيه أنه سيمضي في آرائه.. ناشرًا لها بكل الوسائل الممكنة، كتأليف كتب جديدة، ومقالات في الصحف ومحاضرات وأحاديث [١].

لكن ما حدث بعد ذلك دلَّ على أن الشيخ لم ينفِّذ شيئًا مما قاله على أرض الواقع بل على حد تعبير د. عمارة: «حرص طوال حياته على البعد عن أفكار كتابه.. وعن إعادة نشره.. بل وعن الحديث عنه، وكأنه عار أو عورة من العورات»[٢].

ويقول أيضًا: «وفي الحقيقة، فإن الذي مارسه الشيخ علي عبد الرازق – بعد إدانة أفكاره – إلى جانب الصمت عن إثارة القضية– هو التراجع الضمني والعملي، وغير المعلن أو الصريح»[٣].

ورصد فضيلته معالم التراجع والتحول الفكري الحقيقي لدى الرجل في:

أ. إدلائه بحديث نشرته صحيفة (السياسة) اليومية ١ سبتمبر ١٩٢٥م تحت عنوان " حديث جديد مع الشيخ علي عبد الرازق" قال فيه: «إن الإسلام دين تشريعي، وإنه يجب على المسلمين إقامة شرائعه وحدوده، وإن الله خاطبهم جميعًا بذلك، ويجب على المسلمين إقامة حكومة منهم تقوم بذلك، ولكن الله لم يقيدهم بشكل مخصوص من أشكال الحكومات، بل ترك لهم الاختيار في ذلك، وفق مقتضيات الزمن، وحيث تكون المصلحة»[٤].

يقول هذا بعد ما أثبت في كتابه: (الإسلام وأصول الحكم قوله: «إن محمدًا ﷺ ما كان إلا رسولًا لدعوة دينية خالصة للدين، لا تشوبها نزعة ملك ولا

(١) انظر: معركة الإسلام وأصول الحكم، محمد عمارة، ص١٣١.

(٢) الإسلام والسياسة الرد على شبهات العلمانيين، محمد عمارة، مكتبة الشروق الدولية، ط١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص ١٠١.

(٣) الإسلام والسياسة الرد على شبهات العلمانيين، محمد عمارة، ص ١٠١.

(٤) المرجع نفسه، ص١٠١، الإسلام بين التنوير والتزوير، محمد عمارة، ص٦٠، نقلا عن: جريدة السياسة اليومية، ع١، سبتمبر سنة ١٩٢٥م.

حكومة»[١].

ب. في مارس سنة ١٩٣٢م، ألقى الشيخ علي عبد الرازق محاضرة بقاعة «إيوارت» بالجامعة الأمريكية بالقاهرة عن «الدين وأثره في حضارة مصر الحديثة» قال فيها: «جرت مصر منذ العصور الأولى على أن يكون الحكم فيها شرعيًا، يرجع إلى أحكام الإسلام والأوضاع الإسلامية، وكان المصريون يفزعون من أن يحتكموا إلى غير قوانين الإسلام؛ لأن الحكم بغير ما أنزل الله كفر صريح في القرآن»[٢].

ج. حينما كان عضوا بمجلس النواب سنة ١٩٤٦م، وعرض على المجلس المشروع الخاص بقانون الأوقاف، ورأى فيه بعض الثغرات، قال: «إنكم في هذا التشريع توشكون أن تفتحوا في باب التشريع الإسلامي حدثًا جديدًا أخشى أن يكون بعيد العواقب، وأخشى أن تكون أقرب الآثار المترتبة عليه أن يمزق الفقه الإسلامي، الذي هو الرابطة الأقوى بين الأمم الإسلامية»[٣].

د. في سنة ١٩٤٧م أصدر كتابه: (الإجماع في الشريعة الإسلامية)، وما فيه من الفكر لا علاقة له بفكر كتاب (الإسلام وأصول الحكم) بل هو على النقيض منه!! [٤].

هـ. في سنة ١٩٥١م جمع لقاء بين الشيخ علي عبد الرازق وبين الأستاذ أحمد أمين، دار فيه حوار حول جمود المسلمين وأسبابه، والسبيل إلى خلاصهم منه، فقال علي عبد الرازق فيما قال: «إن دواء ذلك أن نرجع إلى ما نشرته قديمًا من أن رسالة الإسلام روحانية فقط، ولنا الحق فيما عدا ذلك من مسائل ومشاكل.. إلخ».

---

(١) الإسلام وأصول الحكم، علي عبد الرازق، ص ٤٨– ٨٠.

(٢) الإسلام بين التنوير والتزوير، محمد عمارة، ص ٦٠، نقلًا عن: حضارة مصر الحديثة، لنخبة من زعماء الرأي والثقافة في مصر، المطبعة العصرية، القاهرة، الجامعة الأمريكية، ١٩٣٣م، ص١٥٥.

(٣) الإسلام بين التنوير والتزوير، محمد عمارة، ص ٦١.

(٤) المرجع نفسه، ص ٦١.

فلما تحدث أحمد أمين بمقال له في مجلة (رسالة الإسلام)[١] عن هذا اللقاء، والحوار الذي دار فيه، ونشر نص عبارة علي عبد الرازق.. كتب الشيخ علي تعقيبًا نشر في العدد التالي من المجلة [٢] اعترف فيه بأنه قد قال العبارة المنسوبة إليه، ولكنه نفى أن يكون هذا رأيه، لا اليوم ولا قديمًا بل ونسب هذا الرأي والعبارة المعبرة عنه إلى الشيطان الذي ألقاها على لسانه، وتبرأ منها [٣].

وبعد هذا التتبع الوافي للوقائع الدالة والمؤكدة على أن الشيخ علي عبد الرازق اعتبر كتابه (الإسلام وأصول الحكم) وما ورد فيه هفوة من الهفوات أو زلة من الزلات دفعه إليها الشيطان دفعًا – مما دفعه للتبرؤ مما ورد فيه.

وإزاء تبرؤ الشيخ علي من كتابه ونسبة ما ورد فيه إلى شيطان ألقى عباراته على لسانه يلتقط د. عمارة خيطًا رفيعا لم يلتفت إليه أحد ممن نقدوا ونقضوا كتاب: (الإسلام وأصول الحكم)، وقد تمثل هذا الخيط في كلمة (الشيطان) فينقب عن هوية هذا الشيطان الذي ألقى بهذه الآراء على لسان الشيخ.

ولأن الكتاب قد أحدث ضجة كبرى إثر صدوره، فقد تتبع د. عمارة ما قاله منتقدوه، وكان أول الناقضين له فضيلة الشيخ محمد بخيت المطيعي، فأصدر كتابه: (حقيقة الإسلام وأصول الحكم)، والذي ذكر فيه ما يشير إلى تبرئة ساحة علي عبد الرازق وأن حظه من الكتاب لم يكن سوى وضع اسمه عليه فقط، وأن أحدا من غير المسلمين هو المؤلف الحقيقي له [٤].

(١) مجلة رسالة الإسلام، عدد إبريل سنة ١٩٥١م، وعنوان مقال أحمد أمين: «الاجتهاد في الإسلام».

(٢) مجلة رسالة الإسلام، عدد مايو سنة ١٩٥١م، وعنوان التعقيب: «تعقيب على مقال الاجتهاد في الإسلام».

(٣) انظر: الإسلام بين التنوير والتزوير، محمد عمارة، ص ٦٢، والإسلام والسياسة – الرد على شبهات العلمانيين، ١٩٩٣م، ص ١١٣– ١١٥،

(٤) انظر: حقيقة الإسلام وأصول الحكم، محمد بخيت المطيعي، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٤هـ، ص٢٣٦، ٢٣٧.

ثم أتي من بعد الشيخ المطيعي الدكتور ضياء الدين الريس ليستنتج من كلام المطيعي أن غير المسلم الذي أشار إليه من المحتمل أن يكون أحد المستشرقين خاصة وأن سفر الشيخ علي إلى بريطانيا لمدة عامين دليل يعضد هذا الرأي ويؤكده، وقد يكون هذا المستشرق هو مرجوليوث اليهودي أو أحد أعوانه [١].

لكن د. عمارة لم يقر بهذا القول، وقدم الأدلة على ضعفه، وأنه مجرد استنتاج وتوقع لا دليل عليه، وأورد شهادات لثلاثة من العلماء الثقوا بعلي عبد الرازق، وهم (الشيخ محمد الغزالي – الدكتور محمد رجب بيومي – الشيخ أحمد حسن مسلم)، وأجمعوا على أن الرجل قد تبرأ من القول بروحانية الإسلام، بل إنه صرح للأخير بقوله: «وهل أنا الذي ألفت هذا الكتاب؟ إنما ألفه الدكتور طه حسين!»[٢].

وهنا يمسك د. عمارة بهذا الخيط ليجد في كتاب (طه حسين يتحدث عن أعلام عصره) للدكتور محمد الدسوقي، والذي عمل سكرتيراً مجمعيا لطه حسين أثناء توليه رئاسة مجمع اللغة العربية مابين سنة ١٩٦٤م وسنة ١٩٧٢م، عبارة لطه حسين تؤكد أن له علاقة قوية بالكتاب، ونص عبارته: «إني قرأت أصول كتاب الشيخ علي، قبل طبعه، ثلاث مرات، وعدلت فيه كثيراً».

وهنا يخلص د. عمارة إلى نتيجة مفادها أن كتاب (الإسلام وأصول الحكم) كان شركة بين الرجلين (علي عبد الرازق، وطه حسين)، لكنه لم يقف عند هذا الحد بل أطال نفسه في البحث والتقصي، ليطرح سؤالًا ويقدم الجواب عليه، والسؤال: أي أفكار هذا الكتاب وأبوابه هي الأقرب إلى أن تكون إسهام علي عبد الرازق فيه؟ وأيها هي الأقرب إلى إسهام طه حسين؟

---

(١) انظر: الإسلام والخلافة في العصر الحديث. نقد كتاب الإسلام وأصول الحكم، محمد ضياء الدين الريس، ط٢، القاهرة، ١٩٧٧م، ص ٢١٢-٢١٦.

(٢) انظر: الإسلام بين التنوير والتزوير، محمد عمارة، ص ٧٢-٧٣.

والجواب: يأتي من خلال تشريحه لمحتويات الكتاب، حيث احتوى على محورين: الأول: الخلافة، وهو موضوع الكتاب الأول بأبوابه الثلاثة، والكتاب الثالث بأبوابه الثلاثة، والمحور الثاني: السياسة، وعلاقتها بالإسلام، وهو موضوع الكتاب الثاني بأبوابه الثلاثة.

وما ورد في الكتاب عن محور الخلافة يتنافى مع كتابات طه حسين الواردة عنها في مؤلفاته المنسوبة نسبة حقيقية إليه [١]، وأما ورد فيه عن محور السياسة، وجعل الإسلام كالمسيحية، دينا لا دولة، ورسالة لا حكماً.. ويجعل الإسلام رسالة دينية خالصة للدين، لا سياسة فيها وبلاغاً محضا، لا أثر فيها للتنفيذ والتطبيق والإقامة للشرائع، فهذا هو فكر طه حسين الوارد في أعماله الفكرية التي لا شبهة في إبداعه لها إبداعا خالصا ومستقلاً [٢]،[٣].

وقد يعجب المرء من هذا الصبر في تتبع الدكتور/عمارة للأحداث والوقائع، والمقارنة بين النصوص، بل بين نصوص الكاتب الواحد، في سبيل إبراز الحقائق ناصعة واضحة، لكن هذا العجب يزول حينما يرى أن هذا منهج أصيل ألزم به الرجل نفسه على مدى مشروعه الفكري، في سبيل تقديم الحقائق في حيادية علمية كاملة.

(١) ويحيل د. عمارة القارىء كتاب (الفتنة الكبرى، ج١- عثمان-) ص ٢٢، ٢٥-٢٧، طه حسين، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤م.

(٢) يؤكد د. عمارة هذا بما ورد في كتاب (مستقبل الثقافة في مصر) لطه حسين، والصادر في ١٩٣٨م، ج١، ص١٦، ١٧، ٢٢، ٢٣، ٢٩. وكذلك كتاب (الفتنة الكبرى) ج١- عثمان- ص٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٧.

(٣) انظر هذا التحقيق العلمي الرصين في: الإسلام بين التنوير والتزوير، محمد عمارة، ص ٨٢-٨٨.

٢- الدكتور محمد حسين هيكل باشا [١]: حيث بدأ الرجل حياته الفكرية بالدعوة إلى عدد من الأفكار المناهضة للفكر الإسلامي، والتي تحدرت إليه جراء تأثره بأستاذه الأثير لطفي السيد، فدعا إلى الفكرة القومية، كبديل لفكرة الجامعة الإسلامية، وآمن بالنزعة العلمانية الداعية لعزل الشريعة الإسلامية عن تدبير الاجتماع البشري والعمران الإنساني، كما دعا إلى تقديم الانتماء إلى الفرعونية المصرية على الانتماء إلى الرابطة الإسلامية، وكانت كل هذه الدعوات تمثل إطارًا فكريًا يدور الرجل في فلكه على مدى عشرين عامًا.

وبعد أن بلغ الرجل العقد الخامس من عمره ودخل في إطار مرحلة اكتمال النضج الفكري والثقافي، وهدته فطرته السوية إلى عدم جدوى هذه الأفكار فتحول التحول الفكري الذي برز في نقده لكل هذه الأفكار التي آمن بها وعمل على نشرها وترسيخها في أذهان الناس.

وبرز جهد د. عمارة واضحًا جليًا في تجلية هذا التحول الفكري وإبراز معالمه للأجيال من خلال:

رصد نقد د. هيكل للعلمانية: حيث يقول: «كان الدكتور هيكل في سنة ١٩٢٥م، قائد حملة الدفاع عن هذه العلمانية، فلما حدث له التحول الفكري، وقدم للناس في سنة ١٩٣٥م كتابه (حياة محمد) نقض فيه مرتكزات العلمانية من

(١) محمد حسين هيكل: ولد سنة ١٨٨٨م بقرية كفر غنام بمحافظة الدقهلية، وحفظ القرآن الكريم بالقرية ثم انتقل إلى القاهرة وحصل على الشهادة الابتدائية سنة ١٩٠٢م، والثانوية سنة ١٩٠٥م، وتخرج من مدرسة الحقوق سنة ١٩٠٩م، وسافر إلى فرنسا ليحصل من جامعة السوربون على الدكتوراه عام ١٩١٢م، ليعود إلى مصر ويعمل بالمحاماة، وانضم لحزب الدستوريين سنة ١٩٢٢م، واختير وزيرا للمعارف عدة مرات، واختير عضوا بمجمع اللغة العربية سنة ١٩٤٠م، وعين رئيسا لمجلس الشيوخ من سنة ١٩٤٥- ١٩٥٠م، أثرى المكتبة الإسلامية بعدة مؤلفات، منها: حياة محمد ، وفي منزل الوحي، الصِّديق أبو بكر، والفاروق عمر، وقد توفي – رحمه الله– في سنة ١٩٥٦م، انظر: الموقع الرسمي لمجمع اللغة العربية بالقاهرة:
https://www.arabicacademy.gov.eg/ar/members

الأساس، وأوضح تميز الإسلام عن المسيحية، واختلاف الإنجاز المحمدي في السياسة والدولة عن عيسى عليه السلام وغيره من الرسل الخالين، وضرورة الرؤية المتميزة للمسيرة المتميزة لحضارة الإسلام في هذا الموضوع- موضوع العلاقة بين الدين والدولة»[1].

ونقل عن الدكتور هيكل في معرض حديثه عن الهجرة النبوية قوله: «هنا يبدأ طور جديد من أطوار حياة محمد لم يسبقه إليه أحد من الأنبياء والرسل.. فقد كان عيسى وكان موسى وكان من سبقهما من الأنبياء يقفون عند الدعوة الدينية يبلغونها للناس من طريق الجدل ومن طريق المعجزة، ثم يتركون لمن بعدهم من الساسة وذوي السلطان أن ينشروا هذه الدعوة بالمقدرة السياسية وبالدفاع عن حرية الناس في الإيمان بها... فأما محمد، فقد أراد الله أن يتم نشر الإسلام وانتصار كلمة الحق على يديه، وأن يكون الرسولَ والسياسيَّ والمجاهد والفاتح... والدين والحضارة اللذان بلغهما محمد للناس بوحي من ربه يتزاوجان، حتى لا انفصال بينهما.. وقد خلا تاريخ الإسلام من النزاع بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية.. فأنجاه ذلك مما ترك هذا النزاع في تفكير الغرب وفي اتجاه تاريخه»[2].

ولما غمزه رفاق دربه في بوتقة تصدير الفكر التغريبي للمجتمع المسلم، وأردف تأليفه لكتابه (حياة محمد) بكتاب (في منزل الوحي) رصد د. عمارة نقد الرجل الموضوعي للتغريب موضحًا أسباب ومنطلقات التحولات الفكرية عن المرجعية الغربية إلى مرجعية الإسلام، ونقل عنه قوله: «وأقف هنا لأدفع زعمًا حسب الذين زعموا أنه مغمز غمزوني به بعد تأليف كتابي (حياة محمد). حسب

(١) في فقه المواجهة بين الغرب والإسلام، محمد عمارة، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م، ص ٢٢٩.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٢٩، نقلًا عن: حياة محمد ﷺ، محمد حسين هيكل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، للكتاب، ط ٥، ٢٠٠٥م، ص ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٣٩، ٥١٦، ٥١٩.

هؤلاء أنني انقلبت بكتابة السيرة رجعيا، وكنت عندهم قبلها في طليعة (المجددين) وكيف لا أنقلب عندهم رجعيا وقد جعلت القرآن حجتي وما جاء فيه عن السيرة سندي، ولم أضعه كما يقولون موضع النقد العلمي»(١).

كما نقل عنه نقده اللاذع لانبهاره ورفاق دربه بكل ما يمت للحياة الغربية العقلية والروحية بصلة، وأن هذا الاعتقاد كان وهمًا كبيرًا قد تخلص منه وتحول عنه، فيقول: « ولقد خُيِّل إليَّ زمنًا، كما لا يزال يُخيَّل إلى أصحابي، أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية سبيلنا إلى النهوض. وما أزال أشارك أصحابي في أنَّا ما نزال في حاجة إلى أن ننقل من حياة الغرب العقلية كل ما نستطيع نقله. لكني أصبحت أخالفهم في أمر الحياة الروحية، وأرى أن ما في الغرب منها غير صالح لأن ننقله. فتاريخنا الروحي غير تاريخ الغرب، وثقافتنا الروحية غير ثقافته»(٢).

كما يقول: «كيف نستطيع أن ننقل ثقافة الغرب الروحية لننهض بهذا الشرق وبيننا وبين الغرب في التاريخ وفي الثقافة الروحية هذا التفاوت العظيم؟! لا مفر إذًا من أن نلتمس في تاريخنا وفي ثقافتنا وفي أعماق قلوبنا وفي أطواء ماضينا هذه الحياة الروحية نحيي بها ما فتر من أذهاننا وخمد من قرائحنا وجمد من قلوبنا»(٣).

وفي إطار إشادة د. عمارة بهذه الظاهرة الصحية في سماء الفكر الإسلامي، ظاهرة التحول الفكري من الفكرة العلمانية والدعاية والإعلان لها، إلى الفكرة الإسلامية، والدفاع عن حياضها، يؤكد فضيلته على أمر في غاية الأهمية، ونحن نتتبع مراحل التحول الفكري لدى أمثال هؤلاء المتحولين حيث لن يخلو منهم عصر من العصور، هذا الأمر يتلخص في «ضرورة التمييز بين الذين ناصروا العلمانية لمرض في قلوبهم وسوء نية تجاه الإسلام، وبين الذين انبهروا بالنموذج

(١) المرجع السابق، ص ٢٣١، نقلًا عن: في منزل الوحي، محمد حسين هيكل، دار المعارف، القاهرة، ط ٨، د. ت، ص ٢١.

(٢) في منزل الوحي، محمد حسين هيكل، ص ٢٢ وما بعدها.

(٣) المرجع السابق، ص٢٣.

الغربي العلماني لسوء فهم أو سوء ظن بتراثنا، وبإسلامية الدولة والسياسة والعمران في نموذج الإسلام»[١].

وكأني به يريد أن يهمس في آذان المتصدرين لمناقشة الفكر العلماني بأن المناصرين للعلمانية ليسو سواء فمنهم من يلتمس له العذر بعدم علمه، فلما تكشفت له الحقائق ثاب إلى رشده، ومنهم من سيطر المرض على جنبات قلبه، وهذا لا عذر له بل هو معاد للإسلام عن عمد وسوء قصد وخبث طوية.

٣- الدكتور طه حسين: لقد كان للدكتور طه حسين حظًا موفورًا من عناية د. محمد عمارة، وقد تمثلت هذه العناية في الدراسة الواعية المتأنية لفكر الرجل وتتبع أطوار حياته الفكرية، ورسم صورة مكتملة عن الرجل الذي سُودت الصفحات الطوال والقصار في الرد عليه ونقض فكره، خاصة مع صدور كتابيه (الشعر الجاهلي) عام ١٩٢٦م، و(مستقبل الثقافة في مصر) عام ١٩٣٨م، وتوقفت الأقلام التي هاجمت فكره عند مرحلة الشعر الجاهلي، ومستقبل الثقافة في مصر.

لكن د. محمد عمارة قد أخذ موقفه منحى جديدًا عَلَّمَ فيها الأجيال جميل الإنصاف، وروعة الحيادية العلمية التي تنأى بعيدًا عن دغدغة العواطف، وهدهدة المشاعر، فتتبع بتؤدة فكر الرجل من أين بدأ؟، وكيف سار خط فكره البياني عبر مراحل أربع؟، وإلام انتهى أمره، وأخرج في ذلك سفرًا تلقفه جمهور القراء بلهف وشوق لتجلية الحقيقة سماه (الدكتور طه حسين من الانبهار بالغرب إلى الانتصار للإسلام)[٢].

---

(١) الإسلام والسياسة الرد على شبهات العلمانيين، محمد عمارة، ص ١١٦.

(٢) مما ينبغي التنبيه إليه أن هذا الكتاب لم أول ما تناول فيه الدكتور عمارة فكر طه حسين، فقد تناول أفكاره في عدد من مؤلفاته ومنها (الإسلام بين التنوير والتزوير) من ص ١٥٨- ١٧٣، وكانت طبعته الأولى ١٩٩٥م، أي بفاصل زمني تسعة عشر عاما، لكن د. عمارة قد جمع كل ما تناوله عن الرجل في كتابه (طه حسين من النبهار بالغرب إلى الانتصار للإسلام).

وهذه المراحل الأربع جاءت على النحو التالي:

الأولى: بداياته الفكرية قبل السفر إلى فرنسا سنة ١٩١٤م.

الثانيـة: المرحلـة التـي عـاد فيهـا مـن فرنسـا مبهـورًا بـالغرب الإغريقـي والرومـاني والفرنسي.

الثالثة: من بدايات الثلاثينيات وحتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢م.

الرابعة: مرحلة الإياب الفكري إلى أحضان العروبة والإسلام [١].

ومما هو جدير بالذكر أن د. عمارة قد حدد الغاية من هذا المؤلَّف في صورة نصيحة من مفكر إسلامي قد عركته المعارك الفكرية الضارية، وكوَّن منها خبرة واسعة عبر السنين الطويلة، يقدمها لمن تأخذهم الحماسة غير الرشيدة، فيتناولون بأقلامهم وألسنتهم ما أنتجته قريحة بعض العلماء أمثال طه حسين، ليصبوا جام غضبهم على بعض أعمالهم دون التنبه إلى مسألة في غاية الخطورة، وهي ترصد التوجه العلماني لهذه النظرة الضيقة من بعض المتحمسين، فيهيئون لهم الفرصة السانحة لضم هؤلاء الأعلام إلى دوائر الفكر العلماني التغريبي، ولو فقه هؤلاء المتحمسون لتوابع حماستهم لكان لهم موقف آخر يتسم بالتأني والرويَّة في معالجة الأفكار التي جادت بها عقول هؤلاء، وإعطاء الفرصة لأنفسهم لتتبع الخط البياني لما أنتجه طه حسين ومن على شاكلته فتتكون الصورة الكاملة لفكرهم، وبعدها يقررون كيف يكون الرد والنقد؟

فالغرض من تتبع المراحل الفكرية لطه حسين «ليس فقط للاجتماع حوله على كلمة سواء، وإنما –فوق ذلك– لسحب البساط من تحت أقدام أسرى التغريب والعلمانية والغزو الفكري، الذين يتمسحون بهالات هذا الرجل العظيم.. وليتعلم

(١) انظر: طه حسين من الانبهار بالغرب إلى الانتصار للإسلام، محمد عمارة، هدية مجلة الأزهر، عدد ذي القعدة ١٤٣٥هـ– سبتمبر ٢٠١٤م، ص ٢٠–٢١.

الإسلاميون المنهاج العلمي في دراسة تاريخ الأفكار، فيستردون الرموز، بدل التفريط فيها.. وليزداد ثراء الساحة الفكرية الإسلامية، بدلًا من المنهاج الإقصائي الأخرق، الذي يسلم رموز الفكر الإسلامي إلى غلاة التغريبيين والعلمانيين»[1].

ومن هنا كان من منهجية د. عمارة أن يدافع بل يستميت في الدفاع عن الشخصيات التي تميزت بالشجاعة الأدبية، والنضج الفكري، واتساع الأفق، كثمرة للبحث النزيه، والحيادية العلمية، والتخلص من الهوى، مستخدمًا كافة الوسائل والأساليب البحثية التي تصل به إلى هدفه النبيل في إنصاف هؤلاء المتحولين فكريًا إلى دائرة التمسك بتعاليم الإسلام والدفاع عن حياضه.

وعلى الطرف الآخر نجده يرصد التحولات الفكرية لبعض الشخصيات التي بدأت حياتها الفكرية بداية معتدلة مستقيمة ترى في الإسلام تحقيقًا للتوازن بين متطلبات الدنيا واللآخرة، من خلال تعاليم الشريعة الإسلامية، ثم مالبثت هذه الشخصيات أن تحولت من النقيض إلى النقيض، فأصبحت ترى في تعاليم الشريعة الإسلامية عامل إعاقة لإقامة حياة يسعد فيها البشر، وينعمون بحياة طيبة، وهذا ما سوف يعالجه المبحث الخامس إن شاء الله تعالى.

(١) طه حسين من الانبهار بالغرب إلى الانتصار للإسلام، محمد عمارة، ص ٢٢.

المبحث الخامس

تتبع الخط البياني لفكر الشخصية العلمانية

إن مما يعين على فهم المنجز الفكري للتوجه العلماني دراسة الأطوار الفكرية والثقافية لشخصية الكاتب والمؤلف من خلال تتبع الخط البياني لفكر الشخصية صعودًا وهبوطًا، ارتقاء وانحطاطًا، اعتدالًا وغلوًا، وقد اعتنى د. عمارة بهذه المنهجية في مناقشاته وجداله مع أروقة الاتجاه العلماني بشتى أطيافه.

ومما يذكر في هذا الشأن:

تتبع الخط البياني لفكر المستشار محمد سعيد العشماوي حيث رسم من خلال هذا التتبع معلمًا رشيدًا من معالم أدب الجدل والمناظرة في العصر الحديث، وهو معلم إنصاف الخصم وإبراز محاسنه قبل إثبات مساوئه، فليس الهدف من المجادلة إظهار العورات والتشهير بها بقدر ما هو رغبة في تجلية الحقائق ناصعة البياض لكل ذي بصر وبصيرة.

فتأمل قوله: «في سنة ١٩٧٧م ينشر العشماوي في أحد كتبه هذا النص الدقيق في التقييم والتعبير لمكانة التشريع والقانون في القرآن الكريم، والذي يقول فيه " جاء محمد عليه الصلاة والسلام برسالته والإنسان على ما صار إليه فبدأ بالقرآن بعثته، وكان القرآن تشريعًا كاملًا في الدين والدنيا للفرد والمجتمع، للحاكم والمحكوم، يعمل على ربط كل أفعال الإنسان بالله سبحانه ليجمعها كلها إلى هدف واحد يساكن به الكون وتناغم منه الحياة وتؤمن فيه الناس وتصادق عليه الذات حتى تكون في ذاتها ومع الكل وحدة واحدة، ثم لتكون كلها عبادة، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[(١)]، فالعبادة ليست مقصورة على أداء الفروض الدينية، وإنما هي – في أسمى حالاتها – حسن التوافق والتصادق مع الذات ومع الناس ومع الحياة ومع الله»[(٢)].

---

(١) سورة الذاريات الآية ٥٦.

(٢) سقوط الغلو العلماني، محمد عمارة، ص٢٠٦، ٢٠٧، نقلاً عن: ضمير العصر، محمد سعيد العشماوي، دار سينا، ط٢، ١٩٩٢م، ص ٤٣، ٤٤.

ثم يقول: «تلك هي رسالة محمد لبها جلاء فكرة الله، وبيان حقيقة الإنسان، وهدفها: ربط الإنسان بالله؛ ليستمد اليقين منه، وربط فعاله به، لتتحول حياته إلى عبادة خالصة. لكن الإنسان، لغلبة الضلال على ذاته، وغلبة الظلال على عقله، لم يفهم من رسالة محمد ما أراد له فهمه.. ففضل الله عن نفسه، وفصم الدين عن الدنيا»(١).

وهنا يقدم د. عمارة درسًا بليغا في الإنصاف والحيادية العلمية، فيقول: «في ذلك التاريخ، كان العشماوي يرى «القرآن تشريعًا كاملًا، في الدين والدنيا، للفرد والمجتمع، حتى ليجعل الحياة جميعها عبادة خالصة لله، لا انفصام فيها بين الدين والدنيا»(٢).

وينقل عن العشماوي نصا آخر يثبت به صواب فكره، واعتدال آرائه عن الإسلام في بداية حياته الفكرية، وهو يتحدث عن تنظيم القرآن لجميع مناشط حياة الإنسان تنظيمًا كاملًا، حيث يقول: «فآيات القرآن قد تضمنت بيان أصول العقيدة وأركان الدين ونظام العبادة وحدود الشريعة وأحكام المعاملات، وبذلك شملت تنظيمًا لأغلب مناشط الإنسان إن لم يكن جميعها، وإلى جوار آيات القرآن تقوم السنة، وهي تتكون من أفعال النبي وأقواله فيما يتصل بالدين والشريعة فنصت الآيات والأحاديث على أحكام الحرب والسلام، والزواج والطلاق، والميراث والوصية، والبيع والشراء، وما إلى ذلك من كافة المناحي التي تنتظم فيها حياة الجماعة المحكومة.. لقد اقتصرت آيات القرآن، في العهد المكي، على ما يتعلق بالدين، أما في العهد المدني، فإنها تضمنت – إلى جانب الدين – بيانا للشريعة، وهي بلغة العصر – القانون الذي يحكم علاقة الناس بالدولة وعلاقاتهم ببعض»(٣).

ثم ينتقل د. عمارة لتحديد تاريخ التحول الفكري للعشماوي، فيجده بدأ منذ شهر مايو ١٩٧٩م، بكتابه (أصول الشريعة)، والذي نشر على هيئة مقالات في صحيفة الأخبار القاهرية ما بين يوليو سنة ١٩٧٩م ويناير سنة ١٩٨٠م، ليبدأ

(١) المرجع نفسه، ص٢٠٧، نقلاً عن: ضمير العصر، محمد سعيد العشماوي، ص٤٣، ٤٤.

(٢) المرجع نفسه، محمد عمارة، ص٢٠٧.

(٣) المرجع السابق، محمد عمارة، ص٢٠٧، نقلا عن: حصاد العقل، ص٤٦، ص ٣٩.

العشماوي مرحلة جديدة في مساره الفكري، فيقول: « ومنذ هذا الانقلاب العشماوي، وبعد أن كان الرجل يرى الإسلام والقرآن تشريعًا كاملًا للدين والدنيا، للأمة والدولة، للفرد والمجتمع، في كافة مناحي الحياة، تخصصت كتبه في الزعم بأن الإسلام لا تشريع فيه ولا قانون، بل واتهم القائلين بأن الرسالة المحمدية رسالة تشريعية بأنهم قلبوا الإسلام يهودية، واستبدلوا الإسرائيليات بشريعة الإسلام »[١].

(١) سقوط الغلو العلماني، محمد عمارة، ص٢٠٨.

المبحث السادس

نقض الدعوى بإبراز جهل الخصم بعلوم اللغة العربية

قدَّم الإمام أبو المعالي الجويني – رحمه الله – نصيحة سامية للدراسين لعلوم الشريعة الإسلامية، فقال: «وأما الألفاظ فلابد من الاعتناء بها فإن الشريعة عربية ولن يستكمل المرء خلال الاستقلال بالنظر في الشرع ما لم يكن **ريانًا من النحو واللغة**»[1].

فالتضلع والارتواء من جداول وأنهار اللغة العربية بمختلف تخصصاتها أمر لا مناص منه لمن يتصدر لتعلُّم علوم الشريعة فضلًا عن تعليمها ونشرها، وإلا أصبح كراغب في الطير بجناح واحد مهيض.

ولما كان العلمانيون قد جعلوا الإسلام وما حواه تراثه من علوم شرعية ولغوية هي شغلهم الشاغل، كان من الواجب عليهم الالتفات إلى نصيحة الإمام الجويني وأمثاله من علماء المسلمين من ضرورة الارتباط الوثيق بعلوم اللغة إن أرادوا فهم علوم الشريعة.

والمتتبع للمنجز الفكري لطبقات العلمانيين سيلاحظ أن علاقة القوم – في مجملها وتفصيلها – بعلوم اللغة اتسمت بالضعف الشديد وبالجهل المركب أحيانًا، وقد تنبَّه د. عمارة إلى هذه الثُّلمة في عقول العديد من العلمانيين، وأحسن استغلالها لا بقصد التشنيع عليهم أو الشماتة في ضحالتهم العلمية، بل لينبه القارىء أن القوم ليسوا بأهل للأخذ عنهم، والإفادة مما جادت به قرائحهم، ومن النماذج التي يمكن ذكرها في هذا الشأن:

١. جهل المستشار محمد العشماوي بالتفريق بين كلمة دعوى، ودعوة، حيث

(١) البرهان في أصول الفقه، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، تحقيق: صلاح عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، (٤٣/١).

يقول العشماوى: «بدأ النبي دعواه إلى الإسلام بمكة (٦١٠م)»[١].

فيعقب عليه د. عمارة مذكرًا الرجل بوظيفته كقاضٍ عمل في دوائر القضاء التي تحتم عليه أن يكون دقيقًا في اختيار عباراته فضلًا عن وقوفه على الفروق اللغوية بين الألفاظ المتقاربة في مبناها، المتباعدة في معناها، فيقول: «إن العشماوي رجل قانون أمضى سنوات طويلة من عمره يمارس، كقاضٍ، تطبيق القانون في الفصل في المنازعات بين أطراف الادعاء – المدَّعِي، والمدعَّى عليه، وهو يعرف جيدًا الفرق الجوهري بين «الداعي» – التي هي شهادة لبيان الحق – وبها كان وصف القرآن الكريم رسول الله ﷺ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝٤٦﴾[٢].. ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ﴾[٣] .. يعرف الفرق بين «الدعوة» وبين «الادعاء» و«الدعوى» من الفعل: «ادَّعى» وصاحبها «مدَّعٍ»[٤].

٢–زعم المستشار العشماوي أن القرآن الكريم «لا زالت توجد به حتى الآن بعض الأخطاء النحوية واللغوية»[٥]، وهذه الأخطاء قد تمثلت حسب زعمه في أن ﴿لَسَـٰحِرَانِ﴾ في آية طه: ٦٣: ﴿إِنۡ هَـٰذَانِ لَسَـٰحِرَانِ﴾، صحتها (ساحرين) وأن ﴿وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ﴾ في آية المائدة: ٦٩: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ﴾، صحته: الصابئين، وأن ﴿أَيۡدِيَهُمَا﴾ في آية المائدة: ٣٨: ﴿وَٱلسَّارِقُ

(١) أصول الشريعة، محمد سعيد العشماوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص٥٦، لكن من الأمانة العلمية أن أذكر هنا أن الطبعة الرابعة للكتاب والتي صدرت من مكتبة مدبولي، عُدِّل فيها لفظ (دعواه) إلى (دعوته)، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ص٥٦.

وأرى أن صدور كتاب (سقوط الغلو العلماني) للدكتور محمد عمارة والذي ناقش فيه آراء العشماوي معتمدًا على الطبعة الأولى من الكتاب والتي صدرت عام ١٩٧٩م، ربما كان سببًا أصيلًا في هذا التعديل.

(٢) سورة الأحزاب الآيتان ٤٥– ٤٦.

(٣) سورة الرعد من الآية ١٤.

(٤) سقوط الغلو العلماني، محمد عمارة، ص٣٧.

(٥) المرجع نفسه، ص٣٠، نقلًا عن: الخلافة الإسلامية، ص١٤٨.

﴿وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ صحتها (يديهما)»[1].

وينعى د. عمارة على الرجل ضحالة معرفة الرجل باللغة العربية فضلًا عن وجوه الإعراب المعروفة في علم النحو، وعلى حد قوله: «لو أنه قرأ كتابًا في نحو العربية – ولا نقول في تفسير القرآن – مما يدرس في المعاهد الإعدادية الأزهرية، لعلم وجه إعراب هذه الألفاظ الثلاثة في هذه الآيات»[2].

ثم ساق وجوه الإعراب التي خفيت على العشماوي، من خلال ما قاله أساطين العربية أمثال الخليل بن أحمد الفراهيدي، وسيبويه.

٣–أفرد الدكتور لويس عوض عدة مقالات بمجلة التضامن لتشويه صورة جمال الدين الأفغاني – رحمه الله – ويرصد د. عمارة هذه المقالات وما فيها من مغالطات تاريخية وعلمية، ولغوية، وكان من هذه المغالطات اللغوية، ما زعمه لويس عوض أنه ورد على لسان جمال الدين الأفغاني عبارة قال فيها عن نفسه: «والشيعة يقولون إني نصيبي».

ويعلق د. عمارة على ما أورده لويس عوض بأن الرجل: «لا يستطيع تمييز الخطأ؛ لأن صحة الكلمة، «ناصبي» وبدلًا من أن يسأل أهل الذكر عن معنى الكلمة فيصححها، يتطوع ليفتي ويفسر، فإذا بعلمه الغزير يثير الضحك والرِّثاء! لقد فتح قوسًا ليفسر كلمة «نصيبي» فقال: «من معركة نصيبين، أي من أعداء علي بن أبي طالب!! والرجل لا يدري أن الإشارة إنما هي إلى فرقة «النواصب» الذين ناصبوا علي بن أبي طالب وبنيه العداء، وأن المفرد منها «ناصب»، والنسبة إليها «ناصبي» أما معركة «نصيبين» فلا علاقة لها بالموضوع... «فنصيبين» مدينة بالشام فتحت في زمن عمر بن الخطاب ﷺ»[3].

(١) سقوط الغلو العلماني، محمد عمارة، ص ٣٣.

(٢) المرجع نفسه، ص٣٣.

(٣) جمال الدين الأفغاني بين حقائق التاريخ وأكاذيب لويس عوض، محمد عمارة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط١، ١٤٣٠هـ– ٢٠٠٩م، ص ١٢٠.

المبحث السابع

الاستشهاد بأقوال علماء الغرب المنصفين الناقضة لقضايا العلمانية

لقد استلهم العلمانيون العرب معظم القضايا التي أثاروها، والشبهات التي نشروها، من مؤلفات أساتذة التنوير الغربيين الذين كانوا بمثابة المعلمين الموجهين، فقد كان انبهارهم بكل ما أنتجته القريحة الغربية لا حدود له، وقد كان الانبهار دافعًا لأن تسطر أقلام العلمانيين ما يزين للجماهير الأخذ بكل ما أنتجه القلم الغربي بحلوه ومره، بإيجابياته وسلبياته، بما يتوافق مع ديننا الإسلامي وما يخالفه، وبما يلائم ثقافاتنا وعاداتنا وما يناقضها، وقد استغل د. عمارة هذه الحالة من الانبطاح الناتج عن الإعجاب اللامحدود بالعقلية الغربية؛ ليقدم للعلمانيين بصفة عامة، ولبعض مفكريهم ومنظريهم بصفة خاصة من أقوال أساتذتهم الغربيين ما ينقض دعاواهم من أساسها، وركز فضيلته على الفئة المشهود لها بسعة الأفق، وذيوع الصيت، وانتشار المؤلفات، ومما يذكر في هذا الشأن:

١. زعم الشيخ علي عبد الرازق في كتابه (الإسلام وأصول الحكم) أن الرسول ﷺ قد انحسرت مهمته في التبليغ والإرشاد دون سعيه إلى إقامة دولة ترعى مصالح العباد، وتنظم شؤون حياتهم، وبعد أن أشبع د. عمارة هذا الزعم الذي تفرد به عبد الرازق آنذاك ردًا من خلال ما ثبت في مصدري الإسلام (القرآن والسنة)، وكذلك مصادر التراث الإسلامي المختلفة.

ولأنه من الوارد أن ينكر القوم كل هذا أو بعضًا منه، لكنهم لن يتجرأوا على إنكار ما سطره أساتذة الفكر الغربي، وإلا وقعوا في تناقض مريب، فنقل لهم – رحمه الله – من أقوالهم ما يعضد ما ورد في المصادر الإسلامية، واستشهد على فساد دعوى عبد الرازق بما سطره قلم المستشرق «دافيد دي سانتيلانا» بقوله: «وخلفاء الرسول ما هم بوارثي رسالته الروحية.. لقد أبى أبو بكر قبول لقب «خليفة الله»، واكتفى بلقب «خليفة رسول الله»، ثم درج لقب «أمير المؤمنين» منذ

زمن عمر بن الخطاب، فحدد بكل وضوح صفة ممثل السلطة العليا الذي هو في الحقيقة ليس عاهلًا «ملكًا» بل هو «أمير».. أما وظيفته الدينية – وهي أصل جميع وظائفه الأخرى.. فليس فيها ما يضفي على الخليفة صفة القداسة أو يسمه بميسم الكهنوت.. إن سلطة الخليفة، كرئيس ديني، لا يمكن أن تعتبر سلطة حبريَّة أو بابوية، فهو متجرد تماما من صفة الكهنوت، لأن حكومة المسلمين ما كانت في أي زمن أو ظرف حكومة دينية ولم يوجد فيها تعاقب رسولي»(١).

ويعقب فضيلته على ما أورده عن هذا المستشرق بقوله: «فنحن هنا بإزاء خلافة مدنية ذات وظيفة دينية، لها مرجعية إسلامية.. فلا هي بالعلمانية التي تفصل الدين عن الدولة، ولا هي بالبابوية الكهنوتية.. إنها نموذج لم يعرفه الغرب.. ولا علاقة له بالمشكلة التي جاء التنوير الغربي العلماني ليحلها في مجري التطور الغربي الخاص».

وينقل عن سانتيلانا قوله: «إن الرابطة التعاونية الموجودة بين الخليفة والشعب تبقى متينة وثيقة العرى ما دام الخليفة صالحًا للقيام بواجبه في حماية المجتمع الإسلامي، فإذا لم يعد أهلًا لمنح شعبه ما يريده منه، بطل سلطانه وفسخ العقد شرعًا بين المتعاقدين»(٢).

ثم يتسائل – رحمه الله –: «فأين هي الخلافة الإسلامية التي كانت ولاية صاحبها كولاية الله وولاية رسوله.. يجلس غير بعيد من مقام العزة الإلهية كما قال وادعى علي عبد الرازق؟! وسانتيلانا يقول: «إنها ما كانت في أي زمن أو ظرف حكومة دينية؟!»(٣).

٢. ادعى سلامة موسى أن الخلفاء المسلمين كانوا مستبدين، وأن الخلفاء أسسوا

(١) الإسلام بين التنوير والتزوير، محمد عمارة، ص٥٦، نقلًا عن: القانون والمجتمع، بحث منشور بكتاب تراث الإسلام، جمهرة من المستشرقين بإشراف سير توماس أرنولد، ترجمة: جرجيس فتح الله، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٧٢م، ص٤٢٤، ٤٢٥.

(٢) الإسلام بين التنوير والتزوير، محمد عمارة، ص٥٧.

(٣) الإسلام بين التنوير والتزوير، محمد عمارة، ص ٥٦.

حكمًا بابويًا، بل أسوأ من حكم البابوات، فقال: «إن الحكومة العربية كانت في أرقى وأحسن أوقاتها حكومة استبدادية. ولا عبرة لما يقال بأن الإسلام أمر بالشورى، فإن عمر بن الخطاب نفسه لم يكن يستشير أحدًا فيما يراه خيرًا لرعيته.. والخلفاء كانوا ينظرون إلى أنفسهم نظرًا بابويًا، بل البابا نفسه إذا قيس إليهم في بعض الأشياء يعد دستوريًا»(١).

فيرد عليه د. عمارة بأن دعواه قد «نفاها كل المستشرقين الذين درسوا فلسفة الحكم الإسلامي، ونظام الخلافة في تاريخ الإسلام.. بل وقالوا إن فلسفة الحكم الإسلامي على العكس من فلسفة البابوية وحكمها تمامًا»(٢).

ويستشهد على صدق قوله بما قاله المستشرق «سانتيلانا» عن علاقة الخليفة بالأمة ووصفه إياها بأنها رابطة تعاونية قائمة على العلاقة التبادلية بين الخليفة ورعيته، فتظل قائمة طالما أدى الخليفة ما عليه من واجبات، ينفسخ عقدنا إذا فرط في ذلك، حيث قال: «إن الرابطة التعاونية الموجودة بين الخليفة والشعب تبقى متينة وثيقة العرى ما دام الخليفة صالحًا للقيام بواجبه في حماية المجتمع الإسلامي، فإذا لم يعد أهلًا لمنح شعبه ما يريده منه، بطل سلطانه، وفسخ العقد شرعًا بين المتعاقدين»(٣).

٣. لم يقتصر الدكتور عمارة في مواجهة الفكر العلماني التغريبي على تتبع العديد من أقوال التنويريين الغربيين المناهضة لدعاوى بعض العلمانيين المتغربين من العرب، وإنما ضم إليه الاستشهاد بأقوال المنصفين من رجالات الدين الغربيين المناهضين للفكر العلماني، والذين رأوا في العلمانية سلاحًا يفتك بالفكرة الدينية المسيحية في بلاد الغرب، ويحولها إلى حالة من الخواء الروحي

(١) اليوم والغد، سلامة موسى، ص١٨٥.

(٢) الإسلام بين التنوير والتزوير، محمد عمارة، ص ١٤٥.

(٣) المرجع نفسه، محمد عمارة، ص ٥٦.

الذي يحول البشر إلى حالة من المسوخ المشوهة.

فقدم لنا دراسة ضافية عنوانها (مأزق المسيحية والعلمانية في أوروبا شهادة ألمانية) للقس الألماني الدكتور/ جوتفريد كونزلن، فنقل عنه ما يثبت للقارىء العربي الذي قصد دعاة العلمانية تغريره وتلبيس الأمور عليه، وأن العلمانية العربية قد ولدت من رحم الأحداث في بيئتها العربية، فأثبت د. كونزلن أن العلمانية منبعها الأساس كان في في أوروبا حيث استقت مبادءها من التنوير الغربي، فقال: «ولقد نبعت العلمانية من التنوير الغربي.. وجاءت ثمرة لصراع العقل مع الدين، وانتصاره عليه، باعتباره مجرد أثر لحقبة من حقب التاريخ البشري، يتلاشى باطراد في مسار التطور الإنساني»(١).

كما نقل عنه ما يؤكد إفساد العلمانية للحياة الدينية في أوروبا والمتمثلة في أروربا، فقال: «لقد أزالت العلمانية السيادة الثقافية للمسيحية عن أوروبا.. ثم عجزت عن تحقيق سيادة دينها العلماني على الإنسان الأوروبي، عندما أصبح معبدها العلمي عتيقًا.. ففقد الناس «النجم» الذي كانوا به يهتدون: وعد الخلاص المسيحي.. ثم وعد الخلاص العلماني»(٢).

وقد مثلت هذه الدراسة –التي قدم لها الدكتور عمارة وعلق عليها– صيحة تحذير وصرخة نذير من توغل العلمانية في العالم الإسلامي والاستماع إلى دعاتها، وهي صيحة وصرخة تستند إلى واقع تاريخي ملموس شهدته أوروبا حين أقصت –بتبنيها العلمانية كبديل للمسيحية– الدين جانبًا، ولم تستطع العلمانية أن تملأ الفراغ للإنسان الأوروبي جراء إقصائه للدين المسيحي بغض النظر عن ضعف المسيحية عن الإجابة على الأسئلة المصيرية التي حيَّرت الإنسان الأوروبي من عدمه.

(١) مأزق المسيحية والعلمانية في أوروبا (شهادة ألمانية) للقس الألماني/ جوتفريد كونزلن، تقديم وتعليق: محمد عمارة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م، ص ١٧.

(٢) المرجع نفسه، ص١٨.

ومثل هذه الدراسات التي كتبها علماء غربيون سواء أكانوا من التنويريين الغربيين المعتدلين، أم من رجالات الدين المسيحي الغربيين، يحتاج إلى مطالعتها والإفادة من إيجابياتها كل من:

الفريق الأول: دعاة العلمانية والتغريب؛ ليروا كيف فعلت العلمانية في تربتها الأولى؟ ولم يمكنها تقديم الحل للإنسان الغربي الباحث عن مخرج من تسلط الكنيسة بكهنوتها على مسارات الحياة، بل زادت قلقه واضطرابه، وهو الآن في طور البحث عن بدائل أخرى.

الفريق الثاني: الدعاة المسلمون المنوط بهم مواجهة وتفكيك الفكر العلماني التغريبي الذي يضرب بأطنابه في جنبات العديد من المجتمعات المسلمة على مستوى العالم الإسلامي، والذي يسعى العالم الغربي إلى غرس فسائله الفكرية في جنباته، فلعل ما فشل في الوصول إليه في المجتمعات الغربية يمكن تحقيقه في المجتمعات الإسلامية على حين غفلة من علمائه ودعاته.

٤. حينما أقدم الدكتور محمد عابد الجابري على محاولة تقديم تفسير للقرآن الكريم وفق ترتيب النزول لا وفق الترتيب الذي انتهى إليه سيدنا جبريل مع رسول الله ﷺ في عرضه عليه في السنة التي انتقل فيها رسول الله إلى الرفيق الأعلى، والتي على إثرها رتب الرسول ﷺ المصحف لكُتَّاب الوحي الشريف، وسماها (فهم القرآن الحكيم: التفسير الواضح حسب ترتيب النزول)، انبرى د. عمارة للرد على هذه المحاولة ببيان زيفها بعدة أدوات عقلية ومنطقية، وكان من أدواته في الرد الاستشهاد بآراء المستشرقين الذين حاولوا تقديم مثل هذه التجربة نكاية في القرآن الكريم لكنهم عجزوا، فنقل فضيلته عن دائرة المعارف الإسلامية التي كتبها كبار المستشرقين وعتاتهم، فقالت: «لقد هوت محاولات المستشرقين –في ثلاثينيات القرن العشرين– إصدار نسخة أخرى من القرآن غير نسخة عثمان»[(١)].

(١) رد افتراءات الجابري على القرآن الكريم، محمد عمارة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١١م، ص ٤١، نقلًا عن: دائرة المعارف الإسلامية، مادة القرآن (١٦/ ٨١٧٩– ٨١٨٦).

ولما وقع الجابري في خطأ تطبيق المنهج الوضعي المنطقي الأوروبي في النظر إلى الوحي والدين والإيمان، باعتبارهم متناقضين مع العقل والعلم، وبعبارة الجابري: «إن الوحي ينتمي إلى منطقة التسليم والإيمان، وليس إلى ميدان البحث والبرهان»(١).

أزال د. عمارة الغشاوة عن بصيرة الجابري، بتجلية الحقائق التي لا يختلف عليها اثنان، ومن ضمنها شهادة علماء الحضارة الغربية، الذين لا يشك في عدم ميولهم أو تعصبهم للإسلام، بأن العقلانية معلم أصيل من معالم الإسلام بل إنه كان سببًا في انتشاره، ومن هؤلاء المستشرق الفرنسي البروفيسور «إدوارد مونتيه» (١٨٥٦-١٩٢٧م) الذي ترجم معاني القرآن إلى الفرنسية، وقال عن العقلانية في الإسلام: «إن الإسلام في جوهره دين عقلي بأوسع معاني هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية والتاريخية، فإن تعريف الأسلوب العقلي بأنه طريقة تقيم العقائد الدينية على أسس من المبادىء المستمدة من العقل والمنطق، ينطبق على الإسلام كامل الانطباق»(٢).

٥. أبان الدكتور عمارة مواطن الافتراق بين القوانين الوضعية التي صدرتها القوى الغربية عبر حملاتها الاحتلالية للعالم الإسلامي في القرن التاسع عشر وبين القانون الإسلامي المرتكز على مبادىء الشريعة الإسلامية وقواعدها، وقدم الأدلة المتعددة على صدق دعواه الناقضة لما ينادي به العلمانيون من ضرورة نقل التجربة العلمانية الغربية بما فيها من قوانين وضعية، من خلال تقديم الشواهد من أقوال المستشرقين الذين درسوا الشريعة

(١) رد افتراءات الجابري على القرءان الكريم، محمد عمارة، ص٥٢، نقلًا عن: في التعريف بالقرآن، محمد عابد الجابري، هامش (٤)، ص٢٢.

(٢) رد افتراءات الجابري على القرءان الكريم، محمد عمارة، ص٦٠، نقلا عن: الدعوة إلى الإسلام، سير توماس آرنولد، ترجمة: حسن إبراهيم حسن، وآخرون، طبعة القاهرة، ١٩٧٠ن، ص٨٩.

الإسلامية وأحاطوا بجوانبها.

ومن هؤلاء المستشرق السويسري «مارسيل بوازار» الذي ينبه على تمييز القانون الإسلامي عن القانون الوضعي العلماني في المصدر وفي المقاصد، فيقول في كتابه (الجوانب الإنسانية في الإسلام): «ومن المفيد أن نذكر فرقًا جوهريًا بين الشريعة الإسلامية والتشريع الأوربي الحديث سواء في مصدريهما المتخالفين أم في أهدافهما النهائية. فمصدر القانون في الديمقراطية الغربية هو: إرادة الشعب، وهدفه: النظام والعدل داخل المجتمع. أما الإسلام، فالقانون صادر عن الله، بناء عليه يصير الهدف الأساسي الذي ينشده المؤمن هو البحث عن التقرب إلى الله، باحترام الوحي والتقيد به.. فالسلطة في الإسلام تفرض عمليًا عددا من المعايير الأخلاقية.. بينما تسمح الديمقراطية ذات الطابع الغربي أن يختار الناس المعايير حسب الاحتياجات والرغبات السائدة في عصرهم»(١).

وما ذكره هذا المستشرق يعني: أن الديمقراطية الغربية قد ترى الحرام حلالًا فتقرُّه وتعمل به طالما أن الجماهير وافقت عليه وفق آلية الديمقراطية المرتكزة على أغلبية الرأي، وهذا ما جعلهم يقرون قانون السماح بالشذوذ، والمثلية، والزنا بموافقة الطرفين، وغير ذلك من السلوكيات التي حرمها الإسلام وجرَّم مرتكبيها.

٦. ادعى المستشار العشماوي أن جمع سيدنا عثمان بن عفان المسلمين على حرف واحد من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم قد ضيع العقل المسلم، وعطل ازدهار العقلانية الإسلامية (٢).

فكان من ضمن أدوات رد د. عمارة على دعواه أن أبرز له نصًا للمستشرق ألفريد

(١) معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام، محمد عمارة، ص٣٥، ٣٦، نقلا عن: الإسلام في الفكر الغربي دين ودولة وحضارة، لواء أحمد عبد الوهاب، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ٨١-٨٣، بتصرف يسير.

(٢) سقوط الغلو العلماني، محمد عمارة، ص٢٤، نقلا عن: حصاد العقل، ص٩٠.

جيوم يشهد فيه بالانبهار بمسيرة العقلانية الإسلامية عبر تاريخ الحضارة الإسلامية، وعبارته: «إن قوة الحركة الاعتزالية مردها جهود أولئك الذين حاولوا أقصى ما في طوقهم إقامة علم الكلام الإسلامي على أسس منطقية، ثم الانسجام بينها وبين الفلسفة التي يجب أن تدرس بوصفها من صميم العقيدة الدينية»[1].

وهذه المنهجية التي اتبعها د. عمارة تحتاج من الدعاة فتح آفاقهم العقلية لمطالعة ما قاله أرباب الفكر الغربي عن الإسلام، والعلوم الإسلامية، والحضارة الإسلامية وهضم هذه النتاج الفكري المترامي الأطراف، ولتكن البداية من الأعمال المترجمة المعنية بهذا الشأن، وأنصح هنا بمتابعة الأعمال الصادرة عن المركز القومي للترجمه بالقاهرة، وما يصدر عن دور النشر المختلفة من الأعمال المترجمة للمفكرين الغربيين أو رجالات الدين المنصفين.

(١) المرجع نفسه، ص٢٧، نقلًا عن: الفلسفة وعلم الكلام، ضمن كتاب (تراث الإسلام)، ترجمة: جرجيس فتح الله، بيروت، ١٩٧٢م، ص٣٧٩.

المبحث الثامن

إزالة الغبش عن تصور العلمانية للقضايا الاجتماعية

حاول التوجه العلماني التسلل إلى جنبات المجتمع المسلم والوصول إلى مختلف فئاته من الطبقات العليا من المثقفين والمتعلمين وصولا إلى الطبقات الدنيا من العوام عبر تشويه المفاهيم والأفكار التي حددها الإسلام للعلاقة بين الرجل والمرأة في المجتمع الإسلامي.

وأسهم في زيادة عناية التيار العلماني بهذه القضية بروز تيارين:

الأول: تيار الجمود والتخلف الذي كان قد ضرب بعطنه في ربوع العالم الإسلامي في عصور التخلف التي أسست لعادات وتقاليد تغلغلت في كيان المجتمع المسلم، وألصقت بالإسلام، وهي في الحقيقة من عادات عصور ما قبل الإسلام، وما عادة عدم رؤية الخاطب لمخطوبته إلا في ليلة الزفاف، وحرمان البنت من الانتساب لدور التعليم عنا ببعيد، وحتى الكتاتيب، التي كان منوطًا بها تعليمُ الصبية مبادئ القراءة والكتابة كانت حكرًا على الذكور دون الإناث.

الثاني: بروز جماعات الغلو والتطرف الذين اتخذوا من الإسلام ستارًا لنشر أفكارهم الجانحة والجامحة، وترسيخها في عقول المسلمين، وخاصة فئة الشباب من طلاب المدارس والجامعات، ورسمت الجدران السميكة والحواجز الفاصلة بين عالم الرجال والنساء، وأصبحت القضية مثارة بين تيارين كليهما أجهل من الآخر بفهم حقيقتها فضلا عن الإلمام بمختلف زواياها بعد أن ركب كلاهما الشطط في فهم النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية، فاستغل دعاة العلمانية كلا التيارين لصالحه، وفتح الدعوة لتحرير المرأة من ربقة العادات والتقاليد الجامدة، ومن ربقة التدين المتطرف على حد سواء، ورفعت الحركات النسائية شعار " إنه لا يوجد

رجال مستعبدون حيث توجد نساء متحررات" [١].

كما أن هذين التيارين جعلا واحدة من رائدات الحركة النسائية في مصر، وهي الدكتورة/ درية شفيق[٢]، تقول: " أسجل حقيقة حاول البعض طمسها وإخفاء نورها حتى لا تصل المرأة إليها وتتمسك بها، هذه الحقيقة في جوهرها تتلخص في أن الإسلام لم يحارب المرأة ولم يحل دون تمتعها بحقوقها كما يزعم هذا بعض من ينتسبون إلى الإسلام" [٣].

وإزاء هذه الإشكالية التي ذاق ويلاتها المجتمع المسلم برز عدد من مفكري الإسلام ذوي القدم الراسخة في فهم نصوص الشريعة الإسلامية ليوضحوا ويبينوا الحقائق السامية التي تمثل منطقة الوسط بين الإفراط والتفريط، والتسيب والتشدد، وكان على رأس هؤلاء المفكرين الدكتور/ محمد عمارة، الذي نصت عبارته المعبرة عن النموذج الوسطي الحامل لروح التحرير الإسلامي للمرأة " إنه ذلك الذي ينطلق من نصوص ومنطق وفقه القرآن الكريم، في تحرير المرأة وإنصافها، والمساواة بين النساء والرجال، الذين سوى الله ﷻ بينهم عندما خلقهم جميعًا من نفس واحدة وساوى بينهم جميعًا في حمل أمانة استعمار وعمران هذه الأرض" [٤].

وهو النموذج الذي " يباهي الدنيا بنماذج الريادات النسائية اللاتي حررهن

---

(١) رحلتي حول العالم، درية شفيق، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، د.ط، د. ت، ص ٦.

(٢) درية أحمد شفيق: ولدت في ١٤ ديسمبر سنة ١٩٠٨م بمدينة طنطا بجمهورية مصر العربية، وحصلت على الدكتوراه من جامعة السوربون بفرنسا عام ١٩٤٠، عن أطروحتها (المرأة في الإسلام)، أصدرت مجلة بنت النيل، وكانت أول مجلة نسائية ناطقة بالعربية، ثم أسست اتحاد بنت النيل ككيان لتحرير المرأة المصرية، لعتزلت العمل العام منذ عام ١٩٥٧م وحتى وفاتها عام ١٩٧٥م، لها عدة مؤلفات، ومنها: رحلتي حول العالم، والمرأة المصرية من الفراعنة إلى اليوم. انظر: موسوعة المرأة عبر العصور، تحرير: أنيس منصور وآخرون، وزارة الثقافة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ٢٠٠٤م (٤/ ١١٤-١١٥).

(٣) المرأة المصرية من الفراعنة إلى اليوم، درية شفيق، مطبعة مصر، القاهرة، ط١، ١٩٥٥م، ص ٥.

(٤) التحرير الإسلامي للمرأة الرد على شبهات الغلاة، محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٢م، ص ١١

الإسلام، منذ عصر النبوة وحتى العصر الذي نعيش فيه، ويدعو –هذا النموذج– إلى اتخاذ هذه النماذج الريادية أسوة وقدوة ومثلا، منها نبدأ جهاد التحرير للمرأة في عصرنا الحديث" (١).

وانطلاقا من هذا المنهج بدأ فضيلته برصد أصل المشكلة والاعوجاج في فهم حقيقتها، ثم انتقل إلى تقديم الشبهات التي أثارها الجانب العلماني مفككًا لطريقة فهما لدى منظرية؛ لينتهي إلى تقديم الحقائق الإسلامية الناصعة التي لا يختلف على الإقرار بها والإذعان لها إلا حانق أو جاهل.

وقد حصر فضيلته الشبهات التي أثارها الجانب العلماني فوجدها تدور في فلك خمس شبهات، جاءت على النحو التالي:

١- أن الإسلام يجعل ميراث الانثى نصف ميراث الذكر.

٢- أن الإسلام يجعل شهادة المرأة على النصف من شهادة الرجل.

٣- أن الإسلام يجعل النساء ناقصات عقل ودين.

٤- أن الإسلام يُشَرِّع لعزل المرأة عن المشاركة في ولايات العمل العام.

٥- أن الإسلام جعل القوامة حقًا من حقوق الرجال دون المرأة (٢).

أما عن الشبهة الأولى فقد فككها من جهات ثلاث:

الأولى: فهم الآية القرآنية التي استند إليها الجانب العلماني، وهي قوله تعالى: (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين) حيث إن الله تعالى لم يقل: يوصيكم الله في المواريث والوارثين للذكر مثل حظ الأنثيين... وهذا يعني أن ما ورد في الآية أمر خاص بحالة معينة وليست قاعدة مطردة.

الثانية: رصد المعايير التي اعتمدها الإسلام لتمايز أنصبة الميراث بين

(١) المرجع السابق، ص ١٣.

(٢) التحرير الإسلامي للمرأة الرد على شبهات الغلاة، محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٢م، ص ٦٥،٦٦.

الوارثين الذكور والإناث، وهي: درجة القرابة بين الوارث وبين المُوَرِّث- موقع الجيل الوارث من التتابع الزمني للأجيال- العبء المالي الملقى على الوارث.

الثالثة: الاستقراء لحالات ومسائل الميراث، والتي كشف من خلالها أن هناك أربع حالات فقط ترث فيها المرأة نصف الرجل من ضمن ما يربوا على الثلاثين حالة(١).

وأما الشبهة الثانية فقد عالجها من خلال بيان الفرق بين لفظتي " الشهادة" و " الإشهاد" اما الشهادة فتكون في ساحات القضاء لاكتشاف العدل المؤسس على البينة، وهي لا تعتمد الذكورة أو الأنوثة معيارا لصدقها أو كذبها، وإنما معيارها تحقق اطمئنان القاضي لصدق الشهادة، وأما الإشهاد فهو الذي تحدثت عنه الآية الواردة في سورة البقرة، وهو الذي يقوم به صاحب الدَّين، للاستيثاق من الحفاظ على دَيْنه، وليس عن " الشهادة" التي يعتمد عليها القاضي في حكمه بين المتنازعين، ولم تجعل الآية هذا الإشهاد شرطًا واجبا على كل صاحب دين، وإنما جرت في مجرى النصح والإرشاد(٢).

وأما الشبهة الثالثة فقد ارتكزت على الحديث النبوي الذي وصف فيه النبي ﷺ النساء بأنهن ناقصات عقل ودين، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فطر إلى المصلى فمرَّ على النساء فقال: يا معشر النساء تَصَدَّقْنَ فإني أُريتكن أكثر أهل النار، فقلن: وبم يا رسول الله؟ قال: تكثرن اللعن وتكفرن العشير ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن قلن وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله قال أليس شهادة المرأة مثل

(١) انظر: التحرير الإسلامي للمرأة الرد على شبهات الغلاة، محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٢م، ص ٦٧- ٦٩.

(٢) انظر: المرجع نفسه، ص ٧٢.

نصف شهادة الرجل قلن بلى قال فذلك من نقصان عقلها أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم قلن بلى قال فذلك من نقصان دينها[١].

وجاءت معالجة فضيلته من ناحية ضرورة فهم ملابسات الحديث حيث إن " الحديث يخاطب حالة خاصة من النساء، ولا يشرع شريعة دائمة ولا عامة في مطلق النساء، فهو يتحدث عن واقع، والحدديث عن الواقع القابل للتغير والتطور شيء، والتشريع للثوابت عبادات وقيمًا ومعاملات شيء آخر" [٢].

ثم شرع في حل المشكل من عبارتي (نقصان العقل – نقصان الدين)، فكلاهما صفة مدح لا ذم في المرأة، فإذا كان الرجل يتميز بغلبة عقلانيته على عاطفته، فإن المرأة تتميز بغلبة عاطفتها على عقلانيتها، وعاطفتها أقوى سلاح تستعمله لغلبة الرجل الحازم العقلاني، " فنقص العقل ... هو وصف لواقع تتزين به المرأة السوية وتفخر به؛ لأنه يعني غلبة عاطفتها على عقلانيتها المجردة، ولذلك كانت مداعبة صاحب الخلق العظيم للنساء في يوم الفرحة والزينة، عندما قال لهن: إنهن يغلبن بسلاح العاطفة وسلطان الاستضعاف أهل الحزم والألباب من عقلاء الرجال، ويخترقن بالعواطف الرقيقة أمنع الحصون" [٣].

وكذلك (نقص الدين) فهو وصف لواقع المحمود والممدوح، والمتمثل في زيادة رخص المرأة في العبادات عن الرجل، خاصة في فريضتي الصلاة والصيام، و " إذا كان الله ﷻ يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه، فإن التزام النساء بهذه الرخص الشرعية هو الواجب المطلوب والمحمود، وفيه لهن الأجر

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، حديث رقم (٢٩٨).

(٢) انظر: التحرير الإسلامي للمرأة الرد على شبهات الغلاة، محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٢م، ص ٨٨، ٨٩.

(٣) انظر: المرجع نفسه، ص ٩١.

والثواب" (١).

وأما الشبهة الرابعة فقد تعلقت بقضية ولاية المرأة للمناصب والتي اعتبرها الجانب العلماني انتقاصا من أهلية المرأة، فأبان فضيلته أن الإسلام أعطى للمرأة عددًا من أنواع الولايات، فأعطاها الولاية على أموالها كسبًا وإنفاقًا، والولاية على نفسها في حق اختيار شريك حياتها، وولاية على بيتها وتربية أولادها، ثم شرع في حل مشكل الحديث النبوي (ما أفلح قوم يلي أمرهم امرأة) مؤكدًا أن كل الذين يحرمون مشاركة المرأة في الولايات العامة والعمل يستظلون بظل هذا الحديث، ومن هنا فقد اعتمد في بيان مشكله على إبراز الملابسات التي ورد فيها الحديث، حيث " إن نفرًا قد قدموا من بلاد فارس إلى المدينة المنورة، فسألهم رسول الله ﷺ: من يلي أمر فارس؟ ، قال أحدهم: امرأة، قال ﷺ: ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة " (٢).

وقد عقب فضيلته على رواية الحديث بقوله: " فملابسات ورود الحديث تجعله نبوءة سياسية بزوال ملك فارس– وهي نبوءة قد تحققت بعد ذلك بسنوات– أكثر منه تشريعًا عامًا يحرم ولاية المرأة للعمل السياسي العام" (٣).

وأما الشبهة الخامسة، فقد عالجها من ناحية فهم الآية القرآنية، حيث إن الآية قرنت " بين المساواة بين الرجال والنساء وبين القوامة للرجال على النساء، بل وقدم هذه المساواة على تلك الدرجة، عاطفًا الثانية على الأولى بـ " واو" العطف، دلالة على المعية والاقتران، أي أن المساواة والقوامة صنوان مقترنان،

(١) المرجع نفسه، ص ٩١ وما بعدها.

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، ك: المغازي، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر، حديث رقم (٤٤٢٥).

(٣) التحرير الإسلامي للمرأة الرد على شبهات الغلاة، محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ– ٢٠٠٢م، ص ١٠٣وما بعدها. .

يرتبط كل منهما بالآخر، وليسا نقيضين، حتى يتوهم واهم أن القوامة نقيض ينتقض المساواة" (١).

ثم انتقل فضيلته لرصد الواقع الإسلامي عبر عصور الإسلام المختلفة بدءًا من العهد النبوي والخلافة الراشدة من ناحية فهم هذه الأجيال لمبدأ القوامة وتطبيقها تطبيقًا سليمًا يتفق مع فهم الآيات القرآنية والوصايا النبوية، والتي تؤكد على أن القوامة مغرم لا مغنم وتكليف لا تشريف.

وبعد هذه الجولة التي طاف فيها الباحث بالعديد من المؤلفات التي سطرها يراع قلم الدكتور/ محمد عمارة واستهدف بها مناقشة الفكر العلماني بشتى فئاته وأطيافه لا أدعي أنني قد أحطت خبرًا بهذه القضية من شتى جوانبها فقد ترامت أطراف المعالجة التي قدمها فضيلته، وهي بحاجة إلى أن تسجل فيها الرسائل العلمية، وتتعدد فيها البحوث والدراسات المتخصصة، وحسبي أني قد وضعت بعضًا من الخطوط العريضة الممهدة لهذا السبيل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(١) انظر: المرجع نفسه، ص ١١١ وما بعدها.

الخاتمة

بعد هذه الرحلة العلمية الشائقة التي عايش فيها الباحث المؤلفات التي سطرها يراع قلم الدكتور محمد عمارة –رحمه الله– وألقى إلينا فيها بعصارة فكره، ووقف خلالها على درر المنهج الذي انتهجه المفكر الإسلامي الرائد في رحلته الممتدة عبر سنوات طويلة لمناقشة وتفنيد ونقد ونقض شبه الفكر العلماني بمختلف تياراته وفئاته، بعد هذه الرحلة يمكن للباحث أن يستخلص أهم النتائج والتوصيات.

أولًا: النتائج:

١–يعتبر الدكتور محمد عمارة واحدًا من أهم المفكرين الإسلاميين الذي نذروا حياتهم لمواجهة مشروع التغريب العلماني، ومناقشة القضايا التي طرحها على الساحة الفكرية.

٢–للدكتور محمد عمارة منهج متميز في المواجهة والمناقشة اعتمد على رصد المشكلة ثم القيام بتحليلها وتفكيكها؛ ثم الانطلاق من التحليل إلى الرد والتفنيد.

٣–لم يتوان الدكتور محمد عمارة عن استحضار المعالم الوضاءة من التراث الإسلامي الذي أثبت من خلال دراسته وهضمه قدرة هذا التراث على أن يكون السياج الحامي للهجمات التغريبية التي تنشد فصل حاضر الأمة ومستقبلها عن ماضيها.

٤–لم تشهد الساحة الفكرية الإسلامية في العصر الحديث أحدًا من رجالات الفكر الإسلامي نذر نفسه لتتبع المنجز المعرفي والثقافي للتوجه العلماني ورصد ما فيه من خلل وتفنيده، كما فعل الدكتور محمد عمارة.

ثانيًا: التوصيات:

من خلال الدراسة المتأنية للمنجز العلمي للدكتور محمد عمارة إزاء فحص الفكر العلماني يوصي الباحث بعدة أمور:

١-توجيه الدعاة إلى الله تعالى إلى مطالعة المنجز العلمي والمعرفي للدكتور محمد عمارة بصفة عامة، والتركيز على ما ركَّز فيها على مناقشة الشبهات الواردة في النتاج العلمي للجانب العلماني.

٢-ضرورة عقد الدورات المنظمة والمتوالية، والتي تعنى بتدريب الدعاة إلى الله تعالى على رصد الشبهات المثارة من الجانب العلماني وتحليل أجزائها، وتفكيكها وصولًا لمناقشتها والرد عليها.

٣-يوصي الباحث بإضافة مادة جديدة يتم تدريسها لطلاب قطاعات أصول الدين والشريعة الإسلامية واللغة العربية، يختص كل قطاع برصد الشبهات المثارة من الجانب العلماني حول القضايا التي تخصه؛ يتسنى من خلالها تخريج طالب أزهري قادر على خوض غمار هذا المجال.

٤-تخصيص مادة مستقلة في كليات فرع البنات بالجامعة الأزهرية تعنى بمناقشة الشبهات المثارة حول القضايا المتعلقة بالمرأة، خاصة وأن الأثر السلبي للآلة الإعلامية، ووسائل التوصل الاجتماعي أصبح باديًا في قناعات قطاع واسع من فتياتنا بما يلقى إليهن من شبهات، مما يؤثر على تماسك الأسرة وترابطها خاصة في سنواتها الأولى.

ثبت المصادر والمراجع

أولًا: القرآن الكريم.

ثانيا: المصادر والمراجع:

١. أبجديات البحث في العلوم الشرعية محاولة في التأصيل المنهجي، فريد الأنصاري، دار السلام للطباهة والنشر والتوزيع، القاهرة ط ٥، ١٤٣٧هـ-٢٠١٦م.

٢. إزالة الشبهات عن معاني المصطلحات، محمد عمارة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٩م.

٣. الإسلام في الفكر الغربي دين ودولة وحضارة، لواء أحمد عبد الوهاب، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٣م.

٤. الإسلام وأصول الحكم، علي عبد الرازق، مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية، ط ٢، ١٣٤٤هـ- ١٩٢٥م.

٥. الإسلام والأمن الاجتماعي، محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

٦. الإسلام والخلافة في العصر الحديث. نقد كتاب الإسلام وأصول الحكم، محمد ضياء الدين الريس، منشورات العصر الحديث، القاهرة، ط١، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.

٧. الإسلام والرد على منتقديه، مجموعة من العلماء مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٢٨م.

٨. الإسلام والسياسة الرد على شبهات العلمانيين، محمد عمارة، مكتبة الشروق الدولية، ط١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

٩. أصول الشريعة، محمد سعيد العشماوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

١٠. الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت– لبنان، ط ١٥، ٢٠٠٢م.
١١. الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي، دراسة وتحقيق: محمد عمارة، طبعة مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠١٠م.
١٢. الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي ، دراسة وتحقيق: محمد عمارة، دار الكاتب العربي، القاهرة، ط١، ١٩٧٠م.
١٣. الأعمال الكاملة للشيخ جمال الدين الأفغاني، دراسة وتحقيق: محمد عمارة، القاهرة، ١٩٦٨م.
١٤. الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده، دراسة وتحقيق: محمد عمارة، بيروت، ١٩٧٢م.
١٥. الإمام الكواكبي فصل الدين عن الدولة، جان داية، دار سوراقيا للنشر بالمملكة المتحدة، ١٩٨٨م.
١٦. البرهان في أصول الفقه، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، تحقيق: صلاح عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
١٧. تثبيت دلائل النبوة، القاضي عبد الجبار، تحقيق: عبد الكريم عثمان، الدار العربية، بيروت، ١٩٦٦م.
١٨. التحرير الإسلامي للمرأة الرد على شبهات الغلاة، محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ– ٢٠٠٢م.
١٩. تراث الإسلام، ترجمة: جرجيس فتح الله، بيروت، ١٩٧٢م.
٢٠. التراث الإسلامي بين التقدير والتقديس، بكر زكي عوض، سلسلة قضايا إسلامية الصادرة عن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، العدد (١٢٥)، ١٤٢٦هـ –٢٠٠٥م.

٢١. التفسير الماركسي للإسلام، محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.
٢٢. الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م.
٢٣. جمال الدين الأفغاني بين حقائق التاريخ وأكاذيب لويس عوض، محمد عمارة، عن دار السلام بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.
٢٤. الحركة العربية المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة (١٩٠٨-١٩٢٤م)، سليمان موسى، دار النهار للنشر، بيروت - لبنان، ط٣، ١٩٨٦م.
٢٥. حصاد العقل في اتجاهات المصير الإنساني، محمد سعيد العشماوي، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت- لبنان، ط٣، ٢٠٠٤م.
٢٦. حضارة مصر الحديثة، لنخبة من زعماء الرأي والثقافة في مصر، المطبعة العصرية، القاهرة، الجامعة الأمريكية، ١٩٣٣م.
٢٧. حقيقة الإسلام وأصول الحكم، محمد بخيت المطيعي، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٤هـ.
٢٨. الحوار بين الإسلاميين والعلمانيين، محمد عمارة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٠م.
٢٩. حياة محمد ﷺ، محمد حسين هيكل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٥، ٢٠٠٥م.
٣٠. الدعوة إلى الإسلام، سير توماس آرنولد، ترجمة: حسن إبراهيم حسن، وآخرون، طبعة القاهرة، ١٩٧٠م.
٣١. رحلتي حول العالم، درية شفيق، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، د.ط، د. ت.

٣٢. رد افتراءات الجابري على القرءان الكريم، محمد عمارة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠١١م.

٣٣. سقوط الغلو العلماني، محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

٣٤. سنن أبي داوود، أبو داوود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط- محمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، ط١، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

٣٥. الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية، محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

٣٦. الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض بن موسى اليحصبي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٨م.

٣٧. الشيخ عبد الرحمن الكواكبي هل كان علمانياً، محمد عمارة، نهضة مصر للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.

٣٨. صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دمشق، ط٥، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.

٣٩. طه حسين من الانبهار بالغرب إلى الانتصار للإسلام، محمد عمارة، هدية مجلة الأزهر، عدد ذي القعدة ١٤٣٥هـ- سبتمبر ٢٠١٤م.

٤٠. طه حسين يتحدث عن أعلام عصره، محمد الدسوقي، دار المعارف، سلسلة (اقرأ) عدد (٥٧٨)، القاهرة، ١٩٩٨م.

٤١. عبد الرحمن الكواكبي شهيد الحرية ومجدد الإسلام، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

٤٢. علماني وعلمانية.. تأصيل معجمي، السيد أحمد فرج، مجلة الحوار، ع٢، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

٤٣. العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق، محمد البهي، القاهرة، ١٩٧٦م.
٤٤. الفتنة الكبرى، طه حسين، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٨٤م.
٤٥. فهم القرآن الحكيم التفسير الواضح حسب ترتيب النزول (القسم الأول)، محمد عابد الجابري، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ٢٠٠٨م.
٤٦. في التعريف بالقرآن، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م.
٤٧. في فقه المواجهة بين الغرب والإسلام، محمد عمارة، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م.
٤٨. في منزل الوحي، محمد حسين هيكل، دار المعارف، القاهرة، ط ٧، ١٩٧٩م.
٤٩. قاموس علم الاجتماع، إشراف: عاطف غيث، القاهرة،١٩٧٠م.
٥٠. القانون والمجتمع، بحث منشور بكتاب تراث الإسلام، جمهرة من المستشرقين بإشراف سير توماس أرنولد، ترجمة: جرجيس فتح الله، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٧٢م.
٥١. لسان العرب، ابن منظور الإفريقي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ط١، ٢٠١٤م.
٥٢. مأزق المسيحية والعلمانية في أوروبا (شهادة ألمانية) للقس الألماني/ جوتفرايد كونزلن، تقديم وتعليق: محمد عمارة، سلسلة في التنوير الإسلامي (٤٤)، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م.
٥٣. محمد عمارة داعية الإحياء والتجديد الإسلامي، عبد الرازق عيسى، سلسلة علماء ومفكرون معاصرون لمحات من حياتهم، وتعريف بمؤلفاتهم، رقم (٤٠)، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.

٥٤. مدخل إلى التراث العربي الإسلامي، خالد فهمي، وأحمد محمود، مركز تراث للبحوث والدراسات، القاهرة، ط١، ٢٠١٤م،

٥٥. المرأة المصرية من الفراعنة إلى اليوم، درية شفيق، مطبعة مصر، القاهرة، ط١، ١٩٥٥م.

٥٦. مسيرة قلم، مقال افتتاحية مجلة الأزهر، رمضان ١٤٣٤هـ .

٥٧. معجم العلوم الاجتماعية، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٧٥م.

٥٨. معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام، محمد عمارة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٤م.

٥٩. موسوعة المرأة عبر العصور، تحرير: أنيس منصور وآخرون، وزارة الثقافة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ٢٠٠٤م.

٦٠. الموقع الرسمي لمجمع اللغة العربية بالقاهرة:

٦١. https://www.arabicacademy.gov.eg/ar/members

٦٢. النص الإسلامي بين التاريخية والاجتهاد والجمود، محمد عمارة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٧م.

٦٣. نهضتنا الحديثة بين العلمانية والإسلام، محمد عمارة، دار الرشاد، القاهرة، ط٢، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

٦٤. اليوم والغد، سلامة موسى، ط١، القاهرة، ١٩٢٨م.